سلسلة أعلام الفكر العالمي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



كالفين

ان كاديه ترجمة المحامي حسيب شمر

«كالفين: المصلح رغمًا عنه»

في اللقاء الذي ضم «كالفين» مع قسس مدينة «جنيف»، قبل بضعة أيام من وفاته، كان باستطاعته أن يقول وهو يستعيد ذكرياته: «لقد عشت هنا في معارك رائعة، وقد قدمت لي التحية على سبيل السخرية مساء احد الأيام أمام بيتي بواسطة خمسين أو ستين طلقة قربينة[1] هل تظنون ان ذلك يمكن ان يصيب بالدهشة تلميذاً مسكيناً خجولاً مثلي انا، ومثلما كنت دائمًا كما اعترف؟»[2]. خجولاً رمي به في معارك لا تنتهي، ولكنه

(١) بندقية من الطراز القديم.

(٢) رسائل فرنسية لكالفين جمعها ج. بونيه. المجلد ٢ صفحة ٥٧٥ باريس (١٨٥٤)

خاضها بقوة لا تقاوم. وايضاً تلميذاً دائماً اضطر ان يصبح معلمًا، وبأية سلطة! هوذا «كالفين» الحقيقي الذي ربما يختلف عن «كالفين» الاسطورة[1]. ونتيجة لحقد غريب اعتبروا الرجل الذي لم يخلق للنضال، والذي كان يحب الدرس والتحصيل، ديكتاتوراً لا يرحم ونظرياً ذا قلب قاس.

ولكنه كان بدون انقطاع، يُقطع عن كتبه وعن مخطوطاته ليقوم بمهمة الرئيس. ومثل «سافونا رول» قاده التبشير «بكلمة الله» الى العمل بين الناس. انما يجب ان لا ننسى ان نفوذه كان روحياً بكامله، وان معاركه كانت بدون سلاح.

انه مصير المصلحين.

يبدأ بالدرس والتفكير في هدوء خلية من خلايا الرهبنة، أو في علية مدرسة. ثم يستمر في كرسي التعليم، أو منبر التبشير، ثم ينتقل الى اتخاذ مواقف عامة، ثم الى تدابير حكومية، والى نضالات مختلفة فكأن التلميذ الخجول قد دفع رغمًا عنه الى امام، ليصبح قائداً

---

(١) «انه في الاساس خجول»: «لوسيان فيفر في: «قلم كالفين» في ذي القلب الديني من القرن السادس عشر، صفحة ٢٥٨ باريس (١٩٥٧)

على رأس الملايين من البشر، أن يصبح مصلحاً رغماً عنه. كان جان كالفين فرنسياً، واسمه الحقيقي «كوفين» وقد حول الى اللاتينية «ليصبح كالفينوس» ، ثم حول من جديد الى الفرنسية : «كالفين». وقد ورث عن جنسه الفرنسي الوضوح، والمنطق ، وحب الخطوط الكبرى، والرغبة في عدم ترك أي شيء في الظل. ولد في نوايون «Noyon » ، في «بيكارديا» «Picaradie ». وترعرع في تلك المقاطعة الشمالية ذات الآفاق الواسعة. والمدينة المذكورة مركز ديني، وفيها كاتدرائية ضخمة كبيرة تعرضت لغزوات متتابعة. وكان «جيرار كوفين» والده» ، وكيلاً عاماً دينياً مكلفاً بادارة ممتلكات الكنيسة. مما جعله عرضة لمشاحنات وخلافات مع رجال الكنيسة. وهكذا فإن الكنيسة لا تظهر جيدة اذا نظر اليها الوكيل الكنسي من مكتبه شبه المظلم. وعلى هذا الاساس وجد في الواقع مصلحان فرنسيان هما فاريل «Farel » و «كالفين» كانا ابني وكيلين يديران شؤون الكهنة، مما اثر فيهما ودفع بهما بعيداً عن المفاهيم الدينية.

غير أن «جيرار كوفين» لم يهمل رغم كل شيء الفوائد التي كانت تؤمنها له المساعدات الكنسية في تعليم أولاده تبعاً للتقاليد. فكل من ولديه شارل وجان نال

بدوره تقدمات المذبح المخصصة للعذراء، وبعد ذلك حصل جان ايضاً على تقدمات مختلف كنائس المنطقة: في «اسبيفيل» (Espeville)، وفي مرتيفيل، Martheville، واخيراً في «بون ليفيك» (Pont L'évêque) بلد اجداده، الذين كانوا بحارة في نهر «الواز». ولم يتخل عن تلك التقدمات التي اتاحت له متابعة تحصيله إلا في سنة ١٥٣٤.

في بادىء الأمر، وفي الحادية عشرة من عمره دخل في «نوايون» الى مدرسة «الشابيت» أي (القلنسوات)، المسماة كذلك بسبب قلنسوة صغيرة كان يلبسها تلامذتها. وقد ارتبط فيها بصداقة مع شباب المنطقة النبلاء، كآل «مونتمور دي هانجيست» (Montomor de Hangest) وخاصة المتحدرين من اسرة كهنوتية، ولم يكن ابن الوكيل يبدو غريباً بينهم. ومع شباب هذه الأسرة ذهب في الرابعة عشرة من عمره الى باريس وباشراف احد المربين، دخلوا في بادىء الأمر الى مدرسة «المارش» (Marche) حيث كان يدرس احد اشهر اساتذة البيداغوجيا (علم التدريس) المدعو «ماتورين كوردييه» (Maturin Cordier)، الذي علّم «كالفين» مبادىء اللاتينية، هذه اللغة التي تمكن فيها بعد من كتابتها بشيء

من الاناقة، مما جعله يحفظ لاستاذه عرفاناً بالجميل، فيستدعيه كأستاذ الى مدرسة «جنيف». غير أن غرابة أطوار مؤدب آل «مونتمور» حملتهم على ترك مدرسة «المارش»، ليدخلوا الى مدرسة «مونتيغو» (Montaigu). وكانت هذه المدرسة، قلعة «لسكولاستية» القرون الوسطى. وكان «الانسانيون» لا يتورعون عن توجيه سخرياتهم اللاذعة اليها. فكان «رابيله» (Rabelais) يقول عنها «انها مدرسة الفقر المدقع او المكان القذر». وقد ادان «نويل بيدييه» Noël Bedier (بيدا)، وكيل السوربون، لوثر «ولوفيفر ديتابل» (Lefèvre d'Etaples) وغيرهما من اصحاب البدع. وربما كان العنف الذي اظهره السبب الذي دفع بتلامذته الى ان يتجهوا بأنظارهم نحو الكتابات التي ادانها بقدر كبير من القوة.

وعلى كل حال، فإن الطالب الشاب، انكب على العمل باندفاع وستحمل مؤلفاته المقبلة بصمات المطالعات الواسعة لمؤلفات «بيار لومبارد»: «استاذ الاحكام، وآباء الكنيسة، وخاصة القديس «أوغستين» St. Augustin[1] ولكن ايضاً القديس يوحنا فم

---

(١) في كتاب حديث عنوانه: القديس اوغستين في مؤلفات كالفين الصادر في آسين سنة ١٩٥٧ بمجلدين، ذكر مؤلفه (م. لوشيزيوس سميتس) ١٧٠٠

الذهب، والقديس «برنارد». وباشراف معلم اسباني يدعى «انطوان كورونيل»، درس بتعمق «اريسطوطاليس». وفيما بعد قال «تيودور دي بيز» واصفاً دروسه في «مونتيغو» : «في غالب الاحيان، كان يستمر في الدرس حتى منتصف الليل. ولأجل ان يتمكن من ذلك كان يتناول عشاء خفيفاً، وثم في الصباح ، عند استيقاظه كان يمكث في سريره بعض الوقت مستذكراً ومردداً ما كان درسه في المساء. وما من شك في ان مثل تلك السهرات قد اضرت بصحته. ولكنه كان يعتبر تلك الساعات أوقاتاً رئيسة لدروسه، كي يتمكن من الاستمرار فيها دون أن يُقاطع. واظن ان تلك الدروس كانت الأساس الذي بنى عليه معرفته الواسعة بالكتاب المقدس ، كما كانت له عوناً على الذاكرة الفريدة التي لوحظت عنده فيما بعد[1]

بعد قضاء أربع سنوات في الدرس، ترك كالفين «مونتيغو» في سنة ١٥٢٨. وفي الوقت نفسه وصل فارس

= نص و ٢٤٠٠ اشارة عن مؤلفات القديس اوغستين في مؤلفات كالفين مما يدل على اطلاع واسع وعميق على الكتابات الاوغستينية من قبل كالفين.

(١) «أوبرا كالفيني» - ٣١ - صفحة «٥٥».

اسباني جرح في حصار مدينة «بامبيلون» (Pampelune) وكان قد وقف حياته للقديسة العذراء، واسمه «اينياس دي لويولا» (Ignace de Loyola). فهل التقيا؟ هل جلسا على المقاعد نفسها؟ هذان الرجلان اللذان قاما بعمل متوازٍ ولكنه مختلف جداً؟ ان مخيلتنا تضع بسهولة جنباً الى جنب ذينك التلميذين، محاولة ان تبين كيف ان تعليمًا واحداً بشعارات واحدة: «لله وحده المجد» «وفي سبيل المجد الأعظم لله» وبديناميكية واحدة، وبالاندفاع نفسه، قد اوجد عملين متناقضين. ولكن مما لا شك فيه ان اللقاء لم يتم[1].

كان «جيرار كوفين» قد وجه ابنه في اول الامر نحو «اللاهوت» (التيولوجيا). لكنه بدل من رأيه بعد ذلك ووجهه نحو الحقوق. ويمكن انه كان لعلاقاته مع كنيسة «نوايون» تأثير في ذلك التغيير. عندئذٍ توجه المطيع الممتثل الى «اورليان» حيث كان يدرّس استاذ مشهور اسمه بيار دي ليتوال «Pierre de L'Etoile» وفي تلك المدينة،

---

(١) الموازاة بين هذين الرجلين قام بها خلال ٤٥٠ صفحة اندره فافر دورساز في كتابه كالفين ولوبولا: اصلاحان : باريس وبروكسل، المطبوعات العالمية ١٩٥١ ـ خاصة الصفحتين ٢٠ ـ ٢١.

التقى برجل سيكون له تأثير كبير في حياته هو «ملشيور وولمـار» (Melchior Wolmar) مـن «ورتمـبـرغ» (Wurtemberg)، وكان من أنصار افكار «لوثر». وكان وولمار متخصصاً بالهيلينية له قيمته. فلم يلبث ان اصبح المعلم الأول لكالفين في درس اللغة اليونانية. وما من شك في انه اطلعه على الكتابات الانجيلية التي كانت تنتشر عندئذٍ بالسر.

وفي سنة ١٥٢٩ كان كالفين ووولمار في «بورج» «Bourges»، حيث بتأثير «مارغريت دانغوليم» (Marguerite d'Angoulême) شقيقة الملك فرانسوا الأول، دوقـة برّي (Berry) ، ملكـة «نافـار» انشئت جامعـة شهيـرة، زاحمت جامعـة «اورليـان». وكـان «أليسيـا» (Aliciat) يدرس فيها الحقوق. فراح كالفين مـدفوعـاً بشراهته للمعرفة، يتابع دروسه، ويقابلها مع الدروس التي كان يلقيها «بيار دي ليتوال» فحازت الاولى افضلية لديه.

اذن حوالى سنة ١٥٣٠ ، كان الطالب ذو الحادية والعشرين من العمر يصغي، ويقابل، ثم يحكم، وقرأ كتابات الاصلاحيين الاوائل. ولكنه اصيب بخيبة أمل نتيجة للمناقشات الحادة التي كانت تجري بينهم. عدا

عن أن التقادير شاعت ان يبدأ في بورج والقرى المجاورة المحيطة بها مثل اسنيير Asnières ولينيير Lignières بالقاء مواعظ تبشيرية انجيلية. ولكن اليس في هذا القول استباق بضع سنوات لاتخاذه موقفاً من الاصلاح؟ في سنة ١٥٣١ توفي والده. فحررته هذه الوفاة من متابعة دروس الحقوق التي كان باشر بها على سبيل الاستجابة لرغبة والده.. ومكنته من التحول نحو دروس جديدة[١].

لقد جرى التأكيد على بضع السنوات تلك من التكوين الحقوقي لاتهام «كالفين» بأنه ادخل في نظامه اللاهوتي نوعاً من الاتجاه الحقوقي. من الأكيد ان التعابير الحقوقية متوافرة في «المؤسسة المسيحية»، مما يجعلنا نشعر بأن الرجل متشرب بلغة رجل القانون. وكذلك فإن تنظيمات جنيف من صنع عالم حقوقي. إنما الشعراء ليسوا هم الذين يقودون المجتمعات. وخاصة ان ذلك التخطيط الحقوقي الذي يلومون الفكر الكالفيني عليه، خاص بالكتّاب الدينيين. ونجده لدى القديس يوحنا

---

(١) راجع الكسندر غانوش: الشاب كالفين : نشأة دعوته للاصلاح وتطورها. ويسبادن ١٩٦٦.

مثلما نجده عند القديس بولس؟ محاكمة، ومحكمة، وادانة، ومحامٍ، وتبرير، وعفو، عبارات من عبارات الانجيل، تتناسب مع عمل الله، القاضي الاعلى، وسيد العفو.

غير ان الطالب الذي حرره موت والده (١٥٣١) من الضغوط الأبوية لم ينصرف الى اللاهوت، بل انصرف الى الادب. «فانسانية «إيراسم» (Erasme) كانت تستهويه أكثر من اعلانات «لوثر»، فإيراسم كان سنة ١٥٢٩، قد انتهى من وضع «كليمانتيا سينيك» (Clementia de Seneque)، فوضع كالفين التعليق عليها. فكان عمل طالب، جيداً لا أكثر، وقد دلل على اطلاع واسع وتجرد بإيراده نصوصاً متعددة عن الكتّاب اللاتينيين.

لقد جرى التساؤل عما اذا كان كالفين، في اختياره التعليق على هذا البحث عن «سينيك» المتعلق بالتسامح، لم يقصد، في وقت عرف الاضطهاد ضد الانجيليين، نصح فرانسوا الاول باتباع الحلم الذي اوصى به «سينيك» الامبراطور نيرون. ان ذلك ممكن. غير ان ما من شيء في النص يجعلنا نفترضه. كما انه سيكون من قبيل المفارقة التاريخية اعطاء «إنساني» من سنة ١٥٣٢

مشاعر مصلح سنة ١٥٣٥ في رسالته الرائعة الموجهة الى فرانسوا الاول: مقدمة «المؤسسة المسيحية».

وهناك مسألة اخرى تعرض بالنسبة الى ذلك التعليق. وهي تتناول موقف «كالفين» تجاه الرواقية، التي عرفت في ذلك العصر، شيئاً من العطف[1]. فرغم الجهود جميعها التي بذلت لربط المؤلف الشاب بهذا الاتجاه[2]، يجب علينا الاعتراف بأن «المصلح» كان دائماً معارضاً للذين يسميهم تبعاً للغة ذلك العصر: «الرواقيين». ولم يحاول أن يعرف شيئاً لا عن الفاتوم Fatum» ولا عن «اللامبالاة» عند «الحكيم» وبعد ذلك، في «المؤسسة المسيحية» كما في «بحث عن الفضائح» سجل مسافات طويلة في الابتعاد عنهم. ولنذكر حسماً للجدل هذا النص:

«لن أتوقف كثيراً، لتجاوز الخطأ الذي يصنعه لنا أخصامنا، بفرضهم علينا اننا مثل الفلاسفة الرواقيين في

---

(١) ل. زانتا: انبعاث «الرواقية» في القرن السادس عشر، باريس ١٩١٤ الفصل الثاني «الرواقية والاصلاح» وخاصة ص ٤٩ ، ٧٢.

(٢) راجع ف. وندل« كالفين، مصادر فكره الديني وتطوره » باريس ١٩٥٠ ، ص ١٣ ـ ٢٠.

العصر الغابر، الذين كانوا يقولبون حياة البشر حسب الافلاك. أو كانوا يتصورون لست أدري أي سرداب «لابيرنت» من الاسباب الحتمية كما كانوا يسمونها. اننا نترك مثل تلك الاحلام لعبدة الأوثان، ولا علاقة لقضاء الله بذلك. انها اذن اهانة خبيثة، عندما يحيطنا الذين يرغبون في اذلال عقيدتنا بمثل هذا الشيء»[1].

لم يلاق التعليق على «التسامح» نجاحاً كبيراً، فهو كان بالنسبة لطالب في الثالثة والعشرين من عمره محاولة غير مشجعة ربما دفعته الى التحول عن السير وراء «ايراسم» و «بودي» (Budé)، ووجهته نحو سبيل آخر: نحو اللاهوت. اذن في هذا الوقت أي حوالى سنة ١٥٣٣ يمكن تعيين ما سماه هو نفسه: «التوبة».

ولكن من الأفضل ان نعطيه الكلام هنا. ففي الواقع ان ذلك الرجل الذي كان يمارس الاعترافات على طريقة القديس اوغستين، قليلاً، كما كان يميل اليها قليلاً، تخلى ذات يوم عن ذلك التحفظ وروى كيف ان

---

(١) كالفين: «بحث الفصائح» نشره م. شميدت ـ باريس ١٩٣٤ ص ٢١٤.
راجع ايضاً في المختارات التي سنوردها فيما بعد المقطعين ٣ و ١٦.

الله جهز قلبه، وجعل من الانساني المتردد مصلحاً رغمًا عنه[1].

اليكم هذا النص الرئيس:

«منذ ان كنت ولداً صغيراً، وجهني أبي نحو اللاهوت، ولكنه بعد ذلك اعتبر ان علم الحقوق يدر الثروة على الذين يدرسونه، فجعله هذا الأمل يغير رأيه. وكان سبباً انتزعني من درس الفلسفة ورماني في دروس الحقوق؛ التي اجهدت نفسي كثيراً في متابعتها بأمانة امتثالاً لرغبة والدي. غير ان الله بقدرته الفائقة السرية، أتاح لي التحول الى جهة اخرى نهائياً.

«أولاً، ورغم اني انكببت بعناد على معالجة خرافات البابوية بشكل كان معه من الصعب اخراجي

(١) لم يكن لذلك الرجل ذي الصفات الكاملة، والنشاط غير العادي، اية مبادرة، وقد لزم له دافع كي يجعله يقرر مزاولة النشاط إلا أنه منذ تلقي ذلك، ظهرت طبيعته الجبارة في اقصى مداها. وفي هذا المعنى، يمكن القول... انه كان اذا جاز لنا التعبير، مصلحاً رغمًا عنه (ابيل لوفران Abel Lefranc) «شباب كالفين، باريس ١٨٨٨ ص: ١٢٣ انما يجب ان نكمل هذا الرأي الصحيح تماماً بالقول ان تلك الدوافع كانت من الله، تبعاً لتأكيد كالفين المستمر نفسه.

من تلك الحياة العميقة جداً، فإنه روض قلبي بتوبة مفاجئة، وجعله مرناً، وخاصة ان قلبي نظراً لسني لم يكن بعد قد اصبح متصلباً جداً في مثل هذه الأشياء.

«ولما كان حصل لي شيء من الميل نحو التقوى الحقيقية ومعرفة بها، فقد التهب في نفسي شعور عارم بالافادة من ذلك، وخاصة اني لم اكن قد تركت بعد الدروس الاخرى تركاً كاملاً، فلجأت اليها ، وقد ملأتني الدهشة من رؤيتي قبل انتهاء العام، جميع الذين يملكون شيئاً من الميل نحو العقيدة الصافية ينضمون اليَّ ليتعلموا رغم اني لم اكن انا نفسي سوى مبتدىء. اما أنا، فبقدر ما كان طبعي وحشياً قليلاً وخجولاً، فقد احببت دائمًا العزلة والهدوء، وبدأت البحث عن مخبأ ووسيلة للانسحاب من بين الناس. وقد اضطررت لبذل جهود كبيرة للوصول الى رغبتي، وعلى العكس فإن عزلاتي والأمكنة البعيدة كانت بالنسبة لي بمثابة مدارس عمومية. إنما بالاختصار كنت أهدف دائمًا الى العيش منعزلاً دون ان يعرفني احد. غير ان الله جعلني اتنقل وأدور بين امكنة مختلفة الى درجة لم يترك لي دقيقة راحة في أي مكان، الى ان قادني اخيراً رغم طبعي ، الى النور،

وادخلني الى اللعبة كما يقال»[1].

ولم تلبث تلك السيـطرة من الله ان ظهـرت، وجعلت ذلـك الرجـل الخجول وقـد اصبح مضـطهداً ملاحقاً يتنقل بين انحاء فرنسا جميعها. غير ان كالفين قبل كل شيء، اتخذ موقفاً مؤيداً للانجيل. وكان ذلك بمناسبة القاء عميد جامعة باريس «نيقولا كوب» خطاباً لدى افتتاح الكليات يوم عيد جميع القديسين في أول تشرين الثاني ١٥٣٣ في كنيسة «الماثوريين». كانت تلك الخطبة اعلاناً انجيلياً عن موضوع الانعامات في الآخرة. وكانت تربط كالفين مع العميد الجـديد عـلاقات من الصداقة، ومن المحتمل جداً ان يكـون «كالفـين» هو الذي وضع تلك الخطبة[2]. وقد لوحق «كوب» بسبب ذلـك الاعلان عن «الفلسفـة المسيحية»[3] ممـا اضطره

---

(١) أوبرا كالفين المجلد ٣١ ص : ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) نشر نص الخطبة مع توضيح استنتاجي لمصلحتها كتبه كالفين، في مقالة «لجان روت» (Jean Rott) عنوانها: خطبة العميد «نيقولا كوب» في مجلة التاريخ والفلسفة الدينية (ستراسبورغ ١٩٦٤ ص ٢٩١ ـ ٣١١).

(٣) هذه العبارة واردة في الجملة الاولى من خطبة «كوب». وهي ايراسمية. وسيستخدمها كالفين في «تعليله للمؤسسة المسيحية» (طبعة ١٥٤١): «وظيفة الدين تلقوا النور الأوسع لله اكثر من سواهم، المبادرة الى مساعدة البسطاء في هذا المكان، وتقديم يد العون لهم، لتوجيههم ومساعدتهم على ايجاد كل ما

للفرار الى «بال». واضطر كالفين ايضاً ان يهجر بسرعة الغرفة التي كان يشغلها في مدرسة «فورتيه» (Fortet) ، متنكراً بثياب كرّام، حاملاً كيسه على ظهره، ومجرفته على كتفه، الآن قطع الخطوة المطلوبة، والاضطهاد قاده الى الانفصال العلني.

استقبله احد اصدقائه المدعو « لويس دي تيله » «Louis de Tillet» في «انغوليم». وكان كاهناً «لكليكس» Claix وراعياً للكاتدرائية فيها. ومن اسرة عرفت ببحاثيها. وكان يملك مكتبة غنية تحتوي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من المجلدات والمخطوطات، وقد وجد «كالفين» في تلك «المكتبة» ما يشبع ظمأه للدرس. وفي تلك الخلوة المفعمة بالاجتهاد انكب المنفي على العمل، فبدأ دون شك في كتابة الصفحات الاولى من كتابه: «المؤسسة المسيحية»، ولم يلبث أن أحاطت به بسرعة حلقة من الانسانيين والمثقفين، ونشأت بذلك البداية المؤثرة للاصلاح، في فرنسا، عن طريق البحث، واللقاءات ، والتأليف المشترك. والبحث عن الحقيقة في

= أراد الله ان يعلمنا في أقواله. ولا يمكن القيام بذلك على الوجه الأفضل إلا بواسطة الكتابات ومعالجة المواد الرئيسة والمثمرة الموجودة في الفلسفة المسيحية» (المؤسسة المسيحية طبعة لابوروفيد ١٩٥٥ ـ ١ ـ ص ١٧).

تلك الحلقات من الدروس حيث كانت تتبلور العقيدة الانجيليـة. ومن خلفها التهـديـد بـالـوشـايـات، والاعتقالات، والمحارق. المواقف لما تكن قد اتخذت، والكنائس لما تكن «انتفضت»، وفي كـل مكان تقـريباً كـانت تتشكـل مجمـوعـات. وفي «نيــراك» (Nerac)، العاصمة الصغيرة ، كانت «مارغريت دي نافار» تستقبل في قصـرهـا الـواقـع عـلى ضفـاف «البـاييـز» (Baise) المضـطهـدين جميعهم، الـذين كـانت تهـددهم قسـوة «السوربون» وقد ذهب «كالفين» يوماً الى هنالك ليقدم التحية الى الملكة، والى جانبها، شيخ فتحت تعليقاته عن «العهد الجديد» طرقاً كثيرة لمعرفة الانجيل، اسمه «لوفيفر ديتـابـل» (Lefèvre d'Etaples)، وهــو معلم جمـاعـة الانسانيين التي تشكلت حول «مرغريت»، وكانت تضم فيمن تضم: «بريسونة» (Briçonnet)، و «جيرار روسل» (Gérard Roussel) و «ميـشــال دارانــد» (Michel d'Arande). فحصل بين العالم الشيخ، والطالب الشاب لقاء ما من شك في ان نصائح بالاعتدال قد اسديت فيه من قبل «الرجل الطيب» «لوفيفر». غير ان الأوان كان قد فات بالنسبة «لكالفين»، فالانفصال عن كنيسة روما كان قد توطد.

لن نتابعه في تنقلاته المختلفة، (كان الناس يسافرون كثيراً في القرن السادس عشر دون ان يخشوا الرحلات الطويلة) : « سافر الى نوايون ، للتخلي عن موارده فيها، والى اورليان، «بواتيه» حيث يمكن ان تكون بدأت الطقوس الاولى «للسين» (Cène)، حسب الطقس الجديد بعد الاصلاح، واخيراً «بال» حيث المكان الأثير للدرس في المدينة التي علم فيها «ايراسم» . وربما أن طالبنا وجد فيها اخيراً المكان الذي كان يرجو ايجاده كثيراً للقيام بدروسه الهادئة، إلا ان حادثاً حمله على الخروج من هدوئه، ألا وهو قضية لوحات الاعلان[1]، (Placards).

في ليلة ١٧ تشرين الاول سنة ١٥٣٤ ظهرت لوحات اعلانية على جدران باريس، في اماكن مختلفة، حتى على باب الملك، في قصره «بامبواز». وكانت تلك اللوحات تتضمن مقالات عنيفة ضد القداس. فقام فرنسوا الاول بردة فعل قاسية ضد ما اعتبره جريمة ماسة بجلالة الملك. مما جعل اصحاب البدع الدينية

---

(١) راجع «لوسيان . لوفيفر»: «القداس ولوحات الاعلان ، في القلب الديني للقرن السادس عشر باريس ١٩٥٧ ص : ١٦٢).

يتحركون، عندئذٍ أمر الملك بتحريات، واعتقالات، واقامة محارق، وقد عوقب وعذب تاجر غني يدعى «اتيان دي لافورج»، كان صديقاً لكالفين. وصل الخبر الى الخارج، فاستنكرها قسم كبير من الالمان، الى درجة حقدوا معها على اصحاب تلك المظالم.

ولتهدئة الوضع، وزعت بعض الكتب الهزيلة المملوءة بالأكاذيب. تقول ان تلك المعاملة القاسية لم تصب سوى اللامعمدانيين والمتمردين الذين بشطحاتهم الطائشة، وآرائهم الخاطئة يهددون بقلب لا الدين وحده، بل ايضاً كل نظام عام[1].

في الواقع كان فرانسوا الاول راغباً في التحالف مع الامراء الالمان، الذين كان كثير منهم قد اصبحوا من مؤيدي الاصلاح. ولكي يبرر مظالمه وممارساته، كلف سفيره، «غليوم دي بيللي» ان يشرح للأمراء ان هؤلاء المعتقلين قد عوقبوا لاسباب سياسية لا دينية. امام تلك النميمة اصيب كالفين برجة من الاشمئزاز فقال: «لقد خيل لي، اني اذا لم اعارض، سأكون جباناً، وغير امين».

---

(١) أوبرا كالفين: المجلد ٣١، ص ٢٤ (مقدمة لكالفين عن تعليقه على المزامير، حيث يعطي المؤلف عن نفسه نبذة تاريخية قصيرة).

وبما انه لا يستطيع ان يكون جباناً، أراد الدفاع عن الذين يشاطرهم الايمان، أصدقائه، اخوته انه خجول ولكنه ليس جباناً.

كان ذلك الحادث الحافز الذي دفعه الى نشر: «المؤسسة المسيحية» وهو كتاب يعتبر بمثابة منشور دفاع، واعلان ايمان، كان قد حضّره دون شك منذ بضعة اشهر في السر، الى ان اضطر في ذلك الوقت الى اخراجه للنور.

نعرف مصير ذلك الكتاب، كتاب حياته، فقد نشر باستمرار، ولحقت به اضافات خلال الطبعات المتتابعة في سنة «١٣٥٦» كان كراساً صغيراً، كتاب دين مؤلفاً من ستة فصول، سهل التخبئة. وفي سنة «١٥٦٠» اصبح مؤلفاً دوغماتياً عقائدياً من اربعة كتب، وثمانين فصلاً. مضخمًا بجميع الاضافات التي رئـي انها ضرورية من قبل ذلك الطالب الدائم، والعامل الذي لا يكل. قال عندما ذكر القديس اوغستين، في آخر مقدمة سنة ١٥٦٠ ما يلي: «اعترف بأني اقف في صف الذين يكتبون وهم يستفيدون ويستفيدون وهم يكتبون»[١]. من الاكيد انه

---

(١) القديس اوغستين ١٤٣ ـ ٢.

استفاد كثيراً خلال طبعات كتابه المختلفة. لنر ذلك.

في سنة ١٥٣٩ ظهرت الطبعة الثانية باللغة اللاتينية في «ستراسبورغ» في سبعة عشر فصلاً.

في سنة ١٥٤١ ظهرت الطبعة الاولى باللغة الفرنسية، وترجم كالفين بنفسه الطبعة الثانية الصادرة باللغة اللاتينية . وكان ظهورها حدثاً في الأدب الفرنسي، اذ للمرة الاولى يظهر كتاب لاهوتي بلغة الشعب، وهو موجه للجميع. لم يكتب فقط لرجال الدين، وإنما لكل مؤمن راغب في تعميق إيمانه كتب، في سنة ١٥٤٣ ظهرت طبعة لاتينية جديدة في واحد وعشرين فصلاً، وقد ترجمت سنة ١٥٥١ ، ثم ظهرت بالتتابع طبعات لاتينية في سنة ١٥٥٠ وقد ترجمت الطبعة الصادرة هذه السنة الى الفرنسية سنة ١٥٥١، ثم طبعة سنة ١٥٥٣ وترجمت في السنة نفسها، ثم طبعة سنة ١٥٥٤ وترجمت فور صدورها، وأخيراً صدرت طبعة سنة ١٥٥٩ وترجمت سنة ١٥٦٠ ، فكانت الاخيرة[1].

هذا الكتاب الذي انتشر في فرنسا بواسطة مشاركين

---

(١) تاريخ «المؤسسة المسيحية» كتب بشكل مميز من قبل البير أوتين (Albert Autin) بعنوان، مؤسسة كالفين المسيحية باريس، مالفير ١٩٢٩.

شجعان، وأحرق من قبل البرلمان قد قولب العقيدة بعد اصلاحها، وشكل التدين الهوغوني أي البروتستانتي الفرنسي. وثاني يوم صدور الطبعة اللاتينية الاولى من «المؤسسة المسيحية» ذهب «كالفين» مع صديقه «لويس دي تيله» الى ايطاليا الى عند الدوقة «رينه دي فيرار» (Renée de Ferrare).

كانت رينه، ابنة ملك فرنسا لويس الثاني عشر ربتها «لويز دي سافوا» مع فرانسوا الاول ومرغريت دانغوليم: ابن عمها وابنته. وكانت مثل ملكة «نافار» متفتحة الفكر نحو العقائد الانجيلية، وتستقبل في «فيرار» المضطهدين بسبب ايمانهم، كما كانت تستقبلهم مرغريت في «نيراك». ولم يكن ذلك مما يستريح اليه زوجها «هركول ديست» (Hercule d'Este) ابن «لوكريس بورجيا»، الذي كان يلومها لوماً شديداً، حتى انه فيما بعد اعتقلها عن طريق محاكم التفتيش. وفي سنة ١٥٣٦ كانت قد استقبلت عدداً من اللاجئين الفرنسيين، مثل «كليمان مارو» (Clement Marot) الذي اهداها قصائده الرائعة، وماتورين كوردييه. وقد انضمت الى صفوف الاصلاح من حاشيتها الامرأتان: مدام دي سوبيز (De subise) وابنتها. وهكذا احاطت «برينه دي فرانس»

حاشية صغيرة من الفرنسيين المنفتحين على الافكار الجديدة. وقضى كالفين وقتاً قصيراً في «فيرار» متنكراً تحت اسم : شارل ديسبيفيل (Charles d'Espeville).

ونحب ان نتصوره في هذا الصدد مراهقاً شاباً تحت الثلاثين، طالباً يقوم برحلة، لم تحن بعد ليالي السهر والنضالات، والوساوس ظهره. انها صورة «هانو» الشاب النبيل، ذي القفاز الابيض والخاتم الذهب وسبابته مرفوعة تأكيداً على ما يلقيه من دروس، وكانت هذه الفترة مناسبة قصيرة لتحية ايطاليا قبل الانكباب على عمل قاسٍ، ولكنها كانت كافية ليعقد صداقة، استمرت فيها بعد خلال سنوات طويلة، وتميزت بعدة رسائل موجهة من المصلح الى صديقته الاميرة والشجاعة. وبعد ذلك بوقت قليل تجده عائداً الى «نوايون» لكي يصفي نهائياً جميع ممتلكاته وهو على عتبة رحلة نهائية الى خارج فرنسا. اذ كان ينوي ان يكتسب من جديد ارضاً حرة: في بال أو في ستراسبورغ حيث تابع فيها ابحاثه اللاهوتية. غير ان الله كان قد صمم على غير ذلك.

يجب ان نترك الحديث لكالفين نفسه، ففي احد المقاطع النادرة جداً التي يتحدث فيها عن نفسه، يروي

لنا المشهد الشهير[1] حيث يحتفظ به «غليوم فاريل» بجنيف، في شهر تموز ١٥٣٦ «مدفوعاً بتعويذ مرعب اكثر مما هو بسبب النصيحة والحض، كما لو ان الله قد بسط من عنده في الاعالي، يده فوقي كي يوقفني». واليكم نص ذلك المقطع المشهور.

«ولأن اقصر طريق للذهاب الى ستراسبورغ حيث كنت انوي الذهاب، كان مغلقاً بسبب الحروب، قررت ان امر في جنيف مروراً خفيفاً بحيث لا اتوقف فيها اكثر من ليلة واحدة... حينئذٍ، اكتشفني (احدهم...)، وأخبر الآخرين ولما كان «فاريل» يلتهب حماسة رائعة لنشر الانجيل، فقد بذل جهده ليبقيني. وبعدما سمع ان لدي بعض الدروس الخاصة احببت من اجل القيام بها ان ابقى حراً، ورأى أنه لا يستطيع الحصول على أي شيء بالتمنيات. ذهب الى حد توجيه اللعنة، طالباً من الله ان يلعن هدوئي وهدوء الدروس التي اسعى وراءها، اذا كنت في مثل تلك الحالة من الضرورة القصوى، انسحب وارفض تقديم العون والمساعدة. مما ارعبني، وهزني بشكل جعلني اتخلى عن السفر الذي

(١) مقدمة التعليق على المزامير ـ أوبرا كالفين المجلد ٣١ ـ ٢٦.

كنت صممت عليه ، وشعرت بخجلي وعاري الى حد اني لم ارد حمل نفسي على القيام بأية مهمة ما».

وهكذا اضطر الطالب الخجول ان يصبح رغمًا عنه مصلحاً. فتخلى تحت قوة ضغط الهي، عن غرفة عمله الهادئة، كلاهوتي، منصرفاً الى النضال الجماهيري، كي يمنح كياناً لكنيسة جنيف المولودة حديثاً. ولذا نراه مكبلاً بتلك المهمة التي سيؤديها حتى مماته. وانها لا شك مهمة شاقة. لقد كان كالفين عند وصوله الى جنيف مجهولاً وغريباً. وعندما أراد الموظف ان يسجل في سجل مجلس المدينة مجيء هذا القارىء الجديد في «الكتاب المقدس»، نسي اسمه وكتب فقط ما يلي: «هذا الفرنسي» (ille gallus)، وسيبقى كالفين حتى النهاية في جنيف هذا الفرنسي. ولم يحز على لقب مواطن إلا قبل اربع سنوات من وفاته. في البدء، بقي منزوياً كمستشار غير معروف «لفاريل» و «فيريه». ولكن لم تلبث عبقريته اللاهوتية، وعبقريته كحقوقي، ان ظهرتا. فالأمر كان يتناول تأسيس كنيسة، مما يستدعي اصدار «قرارات» ووضع دستور إيمان ونيل الموافقة عليه. وتنظيم طقوس «للسين» تحت اشراف مجمع القدامى. ظهرت المصاعب، وتداخلت الضغوط السياسية، وفي ٢٢ نيسان ١٥٨٨ حرم المبشرون

الثلاثة: فاريل، وكالفين، وكورو رفيقهما الاعمى، من قبل مجلس المدينة، واتخذوا طريق المنفى. قال كالفين صارخاً: «حسناً، أهلاً وسهلاً، لو اننا خدمنا الناس لكنا لقينا جزاء سيئاً، انما نحن نخدم سيداً كبيراً وسيجزينا خيراً».

إلا ان الصعوبات كانت من الشدة في جنيف، بحيث انه لقي عزاء في ذلك الرحيل، قال:

«رغم اني اعترف بخجلي، وباني لين، وجبان بطبيعتي، فقد كان يجب عليّ منذ البدايات الاولى تحمل تلك الموجات العاتية جداً، ورغم اني لم اسقط تجاهها، فقد وجدت نفسي مسلحاً بسمو نفس كبير، الى حد اني بسبب بعض الاضطرابات ، طردت، مما ملأ نفسي فرحاً اكثر مما يجب» (١).

لقد ظن مع الأسف، انه واجد في ستراسبورغ حيث توجه، ملاذاً من الراحة يمكنه من العودة الى متابعة ابحاثه التي كان هجرها منذ مدة. غير انه اضطر سريعاً الى التخلي عن تلك الراحة. فاصلاحي «ستراسبورغ»

---

(١) أوبرا كالفين ـ ٣١ ـ صفحة ٢٦.

المدعو «مارتين بوسير» (Martin Bucer) مستخدماً الاسلوب نفسه من الرجاء والالحاح الذي سبق ان استخدمه «فاريل» سأله أن يأخذ على عاتقه طائفة اللاجئين الفرنسيين، الذين هربوا من الاضطهاد، ووصلوا الى «ستراسبورغ» المدينة الحرة. وهناك ايضاً قبل كالفين مضطراً يقول: «متأثراً كجوناس» قبلت ما عرضه عليّ، وتابعت أيضاً مهمتي في التعليم» وهكذا كان مرة اخرى تحت السيطرة السيدة لله.

وقد اثر فيه «بوسر» تأثيراً عميقاً، ظهر في نقاط متعددة وخاصة بالنسبة الى تنظيم «القدامى » في الكنيسة، وفي وضع ليتورجيا (الطقوس) للدين البروتستانتي الجديد. وكانت «ستراسبورغ» ايضاً بالنسبة اليه، مكاناً مارس فيه عملاً لاهوتياً واسعاً. فقد علم في المدرسة العليا التي انشأها سنة ١٥٣٨ «جاك ستورم» (Jeacques Sturm). ونشر لدى «فالنتين ريهيل» الطبعة الثانية اللاتينية من كتابه: «المؤسسة المسيحية»، وادخل فيه كثيراً من البراهين، «فغدا مستجيباً الآن الى عنوانه استجابة واقعية». ونشر ايضاً مؤلفه التفسيري الاول وعنوانه «تعليق على الرسالة الى اهالي روما».

وفي ستراسبورغ، ايضاً كتب: «رسالته الى «جاك

لمدينة جنيف. فرفض كالفين رفضاً باتاً: «أفضل مائة ميتة اخرى على هذا الصليب الذي يجب ان اتمدد عليه يومياً» إلا أن «فاريل» تابع مسعاه حثيثاً، حتى تلقى اخيراً من صديقه هذا الرد:

«لو كان لي الاختيار، لكنت أفضل ان افعل أي شيء على ان استجيب لك في هذه القضية. ولكن بما اني اتذكر اني لا املك نفسي، فإني أقدم قلبي قرباناً للسيد» .

وكأنه جعل منذ ذلك الوقت شعاراً ومثالاً له: يداً تمسك قلباً. وعرف ذلك الرجل انه لا يخص نفسه، فحياته طاعة وتضحية دائمة لله.

وهكذا تم اغلاق الهلالين، وعاد كالفين في جنيف، الى العمل الذي كان انقطع عنه. ونشر توصيات جديدة، وكتب: كتاب الدين لسنة ١٥٤٢، وهو الذي يسمونه بشكل عام: كتاب دين كالفين، ووضع البحث الصغير عن «السين» المقدسة هو عبارة عن توضيح مختصر ومهم لقضية اثيرت مطولاً في الكنائس البروتستانتية. وقد باشر على الأخص كما توقع معارك الكفاح التي ميزت مطلع مهمته، والتي سيطرت

عليه حتى النهاية. وقد جرت تلك المعارك على جبهتين: جبهة المسلكية الاخلاقية، وجبهة العقيدة.

على جبهة السلوك الاخلاقي، كان كالفين في مواعظه اليومية يتبع خطوة خطوة، ومقطعاً مقطعاً نصوص الكتاب المقدس، ويلقي النور بطريقة سهلة وكاملة على وصايا الله واوامره. وبالاستناد الى الملكوت الإلهي، كان «المصلح» يتخيل نصب عينيه مدينة تخضع خضوعاً كاملاً لإرادة من هو في الاعالي، مدينة لله، مدينة ـ كنيسة كي نستعمل عبارة «جورج غوايو»[1]. وحدهم الذين يسجلون في حياتهم، واقع محبتهم لله، وارادتهم في تمجيده، يستطيعون الاقتراب من المائدة المقدسة «للسين» (Cène).

ذلك الالحاح من المبشر، الخاضع لمراقبة القدامى، لم يلبث بسرعة ان اصبح غير محتمل. فسكان جنيف التي كانت أصبحت في ذلك العصر ملتقى طرق أوروبا، كانوا يحبون الملذات والحياة السهلة. واصبح ممثلو الأسر الكبيرة الذين كانوا يعينون بالوظائف المهمة في مجالس المدينة، أو في الجيش، والنقباء، والضباط الذين اعتادوا

(١) جورج غوايو: المدينة ـ الكنيسة، جنيف، مجلدان، باريس ١٩١٩.

الدينية (لقاء اسبوعي) ضد التبشير، وانتقم للمعارضة التي ابداها له كالفين بأن كتب فيها بعد: «حياة كالفين» وملأ كتابه بالأكاذيب المهينة.

ـ «سابستيان كاستيليون»[1] (Sebastien Castellion) الاستاذ في كلية جنيف. الذي لم يتمكن من الدخول الى هيئة قسس المدينة بسبب شكوكه حول استيحاء «نشيد الاناشيد».

ـ «جان روليه» (Jean Roliet) ، الذي كان يلوم كالفين على نظريته حول المقدر ويعلن ان كالفين يجعل بذلك الله صانعاً للشر.

ـ وخاصة ميشال سيرفه (Michel Servet) ـ لنتوقف قليلاً عند هذا الاخير لنقول انه طبيب اسباني، ولد في «فيلنوف» بمقاطعة «اراغون» سنة ١٥١١، وكان مفكراً عبقرياً، ومغامراً، ويرتبط اسمه بدون انقطاع باسم «كالفين». «انها غلطة ، فولتير» كما كان يقول «غافروش». اذ ان فولتير نبي التسامح في كتابه المسمى: محاولة حول الاخلاق في الفصل ١٣٤، يصف ببضعة

---

(١) راجع فرديناند بولسون، سيباستيان كاستيليون باريس ١٨٩٢ مجلدان، ستيفان زويج: كاستيليون ضد كالفين باريس ١٩٤٦.

اسطر لكنها غير صحيحة مع الأسف، الخلاف بين «كالفين» و «سرفيه» يقول:

«عندما اصبح عدوه مكبلاً بالاغلال، وجه اليه الشتائم والمعاملات السيئة مما يلجأ اليه الجبناء عندما يصبحون السادة، واخيراً، لفرط ضغطه على القضاة، واستخدام نفوذ من يرعاهم، والصراخ وجعل الآخرين يصرخون ان الله يطلب اعدام ميشال سيرفيه، جعل هذا الاخير يحرق حياً، وملأ كالفين الفرح لمشهد تعذيبه، هو الذي لو وضع قدمه في فرنسا، كان حرق، هو الذي رفع الصوت عالياً جداً ضد انواع الاضطهادات جميعها».

في مطلع هذا القرن، راحت المجالس البلدية الملحدة للبلدات الصغيرة تطلق اسم «سيرفه» على شوارع، يقع بعضها في بعض الاحيان قرب الكنيسة البروتستانتية، ويبدي الناس اشمئزازهم من قساوة «كالفين».

ليس غرضنا هنا نفي تلك القساوة. اذ يجب الاعتراف بأبعادها ايضاً انما شهد القرن السادس عشر اشتعال كثير من المحارق. وفي فرنسا، وفي الوقت نفسه

الطبيب يكتب تحت اسم «فيلنوف»[١] (Villeneuve) وفي سنة ١٥٥٣، ابدى احد اللاجئين الفرنسيين الى جنيف المدعو: «غليوم دي تري» امام ابناء عمه من مدينة ليون دهشته من حرق خمسة معتقلين من الطلاب البروتستانت فيها باعتبارهم هراطقة بينما يتحملون في الوقت نفسه منكراً كافراً فأنذر بعد ذلك بأن يقدم توضيحاً، فأعطي اسم «ميشال سرفيه» فوضعت محاكم التفتيش يدها على القضية.

فولتير وسواه، اتهموا كالفين بأنه كان خلف قضية «دي تري» وانه هو الذي انذر محاكم التفتيش، بينما هو دافع عن نفسه نافياً التهمة قال:

«تنتشر الضجة هنا وهناك اني عملت على ان تقبض البابوية على سرفيه في فيينا. وكثيرون يقولون اني لم اتصرف بصدق بتعريضه لاعداء الايمان القتلة، كما لو اني رميته في فم الذئاب. ولكن ارجو ان تقولوا لي من أين أتاني ذلك التأثير وتلك الدلالة على عملاء البابا. هناك شيء أكيد يمكن تصديقه، وهو اننا كنا على اتصال

(١) بحث عن الفضائح ، باريس منشورات «جيسير» (Jesers) ١٩٣٤ ص ٢٢٩

بـواسطة الـرسائـل وان الذين يتفقـون معي كما يتفق «بيليال» (Belial) مع المسيح، يتآمرون مع عدو مميت كما يمعلون مع رفيق لهم مما لا حاجة بي الى الالحاح لمدة اطول لالغاء نميمة على ذلك القدر من الخفة والهشاشة، تنهار عندما اقول بكلمة ان لا صحة لها».

أوقِف ‹سرفيه› في «فيينا» واستجوبه المفتش «ماتيو اوري» (Matthieu Ory)، غير انه في اليوم التالي لجلسة الاستجواب الثانية، تمكن من الهرب من سجنه، فحوكم غيابياً، وحكم عليه بالحرق مع جميع مجلدات كتبه التي تمكن رجال الامن من مصادرتها ليكون عبـرة لسواه. عاش خلال اربعة اشهر متشرداً متنقلاً من مكان الى آخر، ثم توجه لسبب لا يعرفه احد الى جنيف. ويوم الاحـد في ١٣ آب سنة ١٥٥٣، دفعـه الفضـول الى الذهاب للاستماع الى «كالفين» الذي كان يبشر في كنيسة «المجـدلية» (Madelaine)، وهنـاك جرى التعـرف عليه واوقف بناء لشكوى «نيقـولا دي لافونتـين» سكرتـير «كالفين» وبعد ذلك بدأت محاكمة شاقة، تدخل كالفين فيها لاهوتياً، وكان القضاة مترددين، فقـرروا استشارة الكنائس الاخرى في سويسرا، فوصلت ردودها في ١٨ تشرين الاول، وكلها تؤكد على مسؤولية «سيرفه» وفي

«فلسفة كالفين»(١)

من الصعب دائـماً التمييـز في مؤلفـات كـل لاهوتي، بين ما يمت الى ميدان الفلسفة وما يمت الى ميدان اللاهوت. فبالنسبـة الى البعض تبدو الـوسائـل المستخدمة في كل منهما متناقضة، اذ ان الفلسفة تستند الى اثباتات عقلية، واللاهوت يستند الى معـطيات لا يمكن اثباتها مستمدة من وحي الكتب المقدسة غير ان احداً لا يستطيع منع نفسه عن التفلسف، وكالفين اكثر

(١) راجع «جان بواسيه»: كالفين، منشورات «سيغير» ١٩٦٤ «مجموعة فلاسفة العصور جميعها:» وهنري بوا. فلسفة كالفين: باريس ١٩١٩ (نقد اللاهوت الكالفيني)

من سواه في هذا الشأن. فهو يفرق بين فلسفة جيدة تنطلق من حقائق ايمان يبحث عن تشكيله الفكري (Fides quarens intellutum) وفلسفة سيئة تريد ان تتجاوز الوحي ومن يوحي به. ان مثل هذه الفلسفة ليست سوى دخان.

وعدا ذلك فالفلسفة موهبة سامية من الله[1] فيجب ان لا نحتقرها ، وغرضنا هنا أن ندرس في فكر كالفين ما هو ليس لاهوتياً بشكل خاص، ولا يمت الى عرض خطة الخلاص. تاركين جانباً المؤلفات عن المسيح، والحياة المسيحية، والتعاليم حول الكنيسة، والصلاة، والاسرار. وسنعرض فكر المصلح حول القضايا الروحية، وطبيعة الانسان، والاختيار الحر، والقدرة الالهية، والمقدّر.

في الحجة التي ساقها كالفين في رأس كتابه «المؤسسة المسيحية» الصادر سنة ١٥٤١، والتي ما انفك يكررها حتى في طبعة سنة ١٥٥٧ يعلن ان هدفه من وراء دراسته الكتابات المقدسة «معالجة المواد الرئيسة ذات التأثير الكامنة في الفلسفة المسيحية». العبارة

---

(١) المقطع الأول. من المنتخبات التي نوردها فيما بعد.

ايراسمية. ورغم انها لا تظهر موجهة للقارىء في طبعة سنة ١٥٦٠ ، يبدو ان كالفين لم يسقطها من حسابه، فالعبارات الاولى من «المؤسسة» تتحدث عن الحكمة، مما هو قريب من تلك : «مجمل حكمتنا كلها تقريباً، التي تستحق رغم كل حساب ان تنشر كحكمة حقيقية وكاملة، قائم في جزأين، بمعرفة الله يعرف كل منا نفسه ايضاً»[١]. فخطتنا اذن لدرس كالفين قد رسمت؛ معرفة الله، ومعرفة الانسان، مع بعض الملاحظات عن نظرية الانتقاء.

ولكن قبل ان نباشر ذلك الدرس، يخيل لنا انه من المفيد التساؤل عن مصادر فكر «المصلح»[٢]. في الواقع ليس لفكر كالفين إلا مصدر واحد؛ الكتاب المقدس الذي درسه بتفصيل سواء في «التعليقات» التي تقدم عرضاً لكتب التوراة ما عدا اثنين: «نشيد الاناشيد، ورؤيا القديس يوحنا، أو في «المؤسسة المسيحية» التي يقدمها مؤلفها كمساعدة للبسطاء «كي

---

(١) راجع جان بواسيه: الحكمة والقداسة في فكر كالفين- باريس المنشورات الجامعية في فرنسا ١٩٥٩.

(٢) راجع فرانسوا ويندل «كالفين منابع فكره وتطوره» وخاصة القسم الثاني، الفصل الثاني، «منابع المؤسسة المسيحية».

تمدهم بالعون لتقودهم، وتساعدهم في ايجاد ما أراد الله ان يعلمنا اياه في كلمته» (حجة وردت في طبعة سنة ١٥٤١). وننتقل الآن الى بحث بعض الطروحات عن مختلف المؤثرات التي عملت في ذلك الفكر.

الرواقية؟ بما ان اول كتابات كالفين سنة ١٥٣٢ أي الصادرة إذن بدون شك قبل «توبته»، ، كانت تعليقاً على كتاب «كليمانتيا سينيك»، فقد فكر البعض بتأثير الرواقية[1] فيه. لقد قلنا سابقاً كيف يجب أن ننظر إلى هذا الأمر النظرة الأفلاطونية؟ لقد خصص «جان بواسييه» (Jean Boisset) في كتابه الممتاز جداً عن: «الحكمة والقداسة في فكر كالفين»[2]، ثلاث فصول لمعالجة الملاحظات عن التأثير الافلاطوني، منطلقاً من استنتاجين:

أ: وجود عدد من المواضيع المشتركة بين المفكرين.

---

(١) «ل زانتا» معرفة الرواقية في القرن السادس عشر - باريس ١٩١٤، وعلى الاخص الفصل الثاني: الرواقية والاصلاح ، راجع ايضاً ويندل. ص ١٢ - ١٧ ، وأيضاً بحثنا المسمى · «الرواقية المزعومة لكالفين» الابحاث اللاهوتية والدينية، مونبليه، ١٩٦٦ رقم ٤.

(٢) جان بواسيه ص: ٢٢٥ - ٣١٤ - راجع من المؤلف نفسه: كالفين ص: ١٠٧ - ١٢٠.

ب : ذكر الفيلسوف اليوناني بصراحة في ثمانية عشر مقطعاً من «المؤسسة».

عن الاستنتاج الثاني نقول انه على الأرجح ضعيف لاثبات حصول التأثير، لأن العدد قليل جداً، وبين تلك الاشارات أو الاستشهادات الثمانية عشر، يوجد ثلاثة هي عبارة عن ايراد اسم افلاطون الى جانب «اريسطو» «وشيشرون»و، وخمسة تهاجم افلاطون بقساوة وتتهمه بأنه مخدوع، وعشرة فقط تأتي لمصلحته «ولكن بالنسبة الى نقاط عامة جداً من فكره (صورة الله في النفس، الخير المطلق للانسان ان يكون متحداً بالله). مما يثبت اتساع الثقافة لدى كالفين أكثر مما هو دليل تأثير الافلاطونية في منهجه الفلسفي. اما بالنسبة الى الاستنتاج الاول، أي المواضيع المشتركة، فيمكننا القول نوعاً ما ان الفكر الانساني قد تميز منذ افلاطون بمفهومه عن عالمين: العالم المنظور، والعالم اللامنظور. غير اننا لا نعتقد ان بالامكان ربط مفهومي الكنيسة المنظورة والكنيسة غير المنظورة بتأثير النظرية الافلاطونية. فالأمر لا يتعدى في نظرنا نوعاً من التجانس اللفظي. انما من الأفضل القول: كنيسة معترف بها من الله وحده، بالتالي وحدها حقيقية، وكنيسة معترف بها من البشر « فيها عدد كبير من النعاج

خارجاً، وعدد كبير من الذئاب داخلاً» (المؤسسة المسيحية ٤ ـ ١ ـ ٨).

هذه العبارة الاخيرة مأخوذة عن القديس «اوغستين»[١]. مما يقودنا الى التحدث عن مصدر واسع كبير للفكر الكالفيني «يمكننا من بعض الوجوه ان نجد فيه تفسيراً لبعض نقاط التقارب مع الافلاطونية»، ونجد هذا المصدر في المؤلفات الاوغستينية. وكما قلنا سابقاً، فإن «لوشيسيوس سميتس» في كتابه: «القديس أوغستين في مؤلفات جان كالفين» قد بين ان ذلك التأثير قوي جداً. ويقول كالفين نفسه: «اما بالنسبة للقديس أوغستين، فإنه يتفق تماماً معنا في كل شيء وفي كل مكان، وهو نحن، الى درجة اني اذا كان عليّ ان اكتب اعترافاً حول هذا الموضوع (موضوع الانتقاء الازلي لله) لاكتفيت بتركيب شواهد مأخوذة من كتبه»[٢]. ، وهذا اللقاء بين اللاهوتيين الاثنين، اليس متأتياً من كونهما كليهما في الاساس لاهوتيين توراتيين؟

---

(١) القديس أوغستين: بحث في الانجيل تبعاً للقديس يوحنا. ٤٥ ـ ١٢.
(٢) كراريس لكالفين: ص ١٢٢٨. راجع بحثنا «كالفين والقديس أوغستين»ـ باريس ١٩٥٤ ص ١٠٣٩ ـ ١٠٥٦.

ما هي فلسفة كالفين تلك؟ لقد وصفها «اوغست لوسير» (Auguste Lecerf) بما يلي: «التعبير المدروس والمنطقي عن وحدانية الله، ضد التأليهية (deisme) والحلولية»[1] (pantheisme). انها اذن نظرية تتناول علافات الله والعالم، فهي باعتبارها ضد التأليهية تظهر كأنها نظرية دينية، وتؤكد على التبعية المطلقة للعالم بالنسبة لله، وباعتبارها ضد الحلولية، تظهر كنظرية اخلاقية، الله هو إله شخصي له مع المخلوقات البشرية علاقة شخصية، وسلطانه لا ينزع عنهم مسؤوليتهم تجاهه.

وهنا نذكر بمطلع: «المؤسسة المسيحية» الذي ذكرناه سابقاً: «مجمل حكمتنا تقريباً... قائم في جزأين: بمعرفة الله يعرف كل منا نفسه ايضاً». معرفة الله ليست فقط التأكيد ان الله موجود، إنما هي على الاخص الايمان بأن كل حكمة، وعدالة، وحقيقة تنبثق منه، ومنه فقط ينبغي أن نتوقعها، وبالتالي، علينا أن نكنّ له عرفاناً بالجميل باعتباره مصدر التقوى الحقيقية «اية فائدة ترجى من الاعتراف مع الابيقوريين» «محبي اللذات والحياة»

---

(١) لوسير: ابحاث كالفينية - تيوشاتيل ١٩٤٩ ص ١١.

بوجود إله ما قد تخلى عن مهمة حكم العالم، ويجد لذة في الراحة؟ وحتى ماذا تنفع معرفة إله لا شيء لدينا نصنع معه؟ ان معرفتنا به على الأرجح يجب ان تمكننا بادىء ذي بدء من ان نتعلم خوفه وتقديسه، ثم ان تعلمنا وتقودنا الى ان نطلب منه جميع الخيرات، وأن نقدم له المديح والثناء [1]. مخافة الله، ليس ان نخاف منه، إنما عبادته، وطاعته، معرفة الله تكون في التعرف اليه كأب، واجلاله بهذه الصفة. هل أن تلك المعرفة من طبيعة الانسان؟ السؤال طرح عدة مرات بالنسبة الى كالفين. ووجد من جديد مطروحاً بمناسبة الجدل الذي قام بين لاهوتيين سويسريين حول اللاهوت الطبيعي.

وفي كراس صغير عن الطبيعة والنعمة[2] (nature and gnade) اشار «اميل برونر» ان في قدرة الانسان نوعاً من المعرفة الطبيعية لله فرد عليه «كارل بارث» (Karl Barth) بكراس صغير مثله، يحمل العنوان الفظ الآتي: «كلا» (Nein)، رافضاً كل معرفة بالله، ليس موحى بها منه نفسه. وقد بحثت المسألة فيما يتعلق بكالفين من قبل

---

(١) راجع لوسير: الجبرية والمسؤولية في نظام كالفين، باريس ١٨٩٥.
(٢) المقطع - ٥ -.

«بيتر بارث» شقيق المذكور، وفي مؤلفه المسمى : «مسألة اللاهوت الطبيعي لدى كالفين» ومن قبل «بيار موري» بالاسم نفسه[1]. ما رأينا في ذلك؟ لقد اكد كالفين ان معرفة الله طبيعية غير مكتسبة في الانسان. نضع خارج الشك ان للبشر في داخلهم شعوراً بالله، اعني حركة طبيعية... ان الله قد طبع في الجميع المعرفة به... لا يوجد امة مهما بلغت من التوحش، ولا شعب مهما بلغ من الفظاظة، والوحشية لا يملكان ذلك الشعور المسبق المتجذر، بوجود إله ما»[2] غير ان كالفين بعد اطلاقه هذا التأكيد وبحركة جدلية من فكره، يبين فترة بعد أخرى انعكاس الله في أعمال مخلوقاته، والعجز الذي يوجد فيه الانسان بسبب عمى الخطيئة عن ادراك ذلك الانعكاس. ويكفي ان نقرأ عناوين الفصلين : ٣ و ٤ من الكتاب الاول من «المؤسسة» (الفصل الثالث): «معرفة الله محفورة طبيعياً في فكر البشر» الفصل الرابع: ان هذه المعرفة اما مخنوقة وأما مفسدة: جزء منها بحماقة البشر، وجزء بخبثهم، الفصل الخامس: ان

---

(١) بيار موري في مجموعته: ابحاث عن كالفين والكالفينية (١٩٣٥ ص . ٢٦٧ - ٢٧٩).

(٢) الفقرة - ٦ -

قدرة الله تشع في خلق العالم وحكمه الابدي، الفصل السادس: «للتوصل الى الله الخالق، يجب ان تكون لنا الكتب مرشدة وسيدة». وفيما يلي ايضاح مهم يوضح في رأيي هذه المسألة:

«ان يكون فينا بالطبع بعض المعرفة بالله، ان يكون لدينا تمييز (تفريق) بين الخير والشر محفور في مداركنا، ان يكون لدينا تفهم لماهية الحياة الحاضرة، وباختصار كل ما يجعلنا نتميز عن الحيوانات المتوحشة، كل ذلك بحد ذاته ممتاز باعتباره مستمداً من الله، غير ان تلك الاشياء كلها الموجودة فينا مشوبة، تماماً لا اكثر ولا أقل، مثل الخمر التي تصبح عاطلة وفاسدة تماماً بسبب فساد وعائها، اذ تفقد لذة طعمها الجيد وتصبح فوق ذلك ذات طعم مر ومؤذٍ. ان معرفة الله المتبقية للبشر ليست شيئاً آخر سوى دافع مخيف للوثنية، والخرافات الباطلة على اختلافها، اما بشأن قرار البشر بالنسبة للتمييز، والاختيار بين الاشياء فهو بجزئه الأول، عمى وكأنه مقلوب، وبجزئه الآخر ناقص ومرتبك، وكل ما لدينا من فن الحديث يتحول الى بطل وحشو لا طائل تحتها، والارادة المندفعة في تهور مرعب، منجرفة تماماً نحو الشر. وهكذا من طبيعة الانسان كلها لا يتبقى ذرة

واحدة من الاستقامة»[1].

وهكذا فإن الانسان بعد السقوط، ليس قادراً على ادراك الله، فهو بحاجة الى الكتب لتكون له مرشده ومعلمة والى روح الله تحل في فكرنا لتنير تلك الشهادة. ان حركة نعمة الله تجاهنا تشكل مصدر ادراكنا الديني كما هي مصدر خلاصنا والحياة الابدية[2].

من هو ، حسب كالفين، الله الذي يظهره لنا اللاهوت الموحى به في الكتب؟ انـه الله السيد، الله الخالق، الكون من صنع يديه انه ايضاً الحارس الابدي والحاكم لهذا العالم الذي خلقهُ. انه يسهـر عليه حتى بالنسبة الى اصغر وقائعه، قدرته ليست عاطلة أو خامدة بل هي دائماً متيقظة ومفعمة بالفعالية والنشاط[3]، يحكم السماء والأرض بقدرته السامية. ويدير الاشياء جميعهـا بشكل ان لا شيء يصير إلا كما حدد هو، وهنا يبين، كالفين المدى الديني لمثل هذا التأكيد بقوله : «انه عزاء حقيقي يتمكن المؤمنون بواسطته من تخفيف آلامهم الى

---

(١) تعليقات كالفين حول يوحنا: ٣ ـ ٦ .

(٢) المقطعان ١٠ و ١١.

(٣) المقطع ١٥

عثرات، بمعنى انهم لا يكابدون إلا ما يـأمر بـه الله ويوصي به، بقدر ما هم تحت سلطانه»[1].

يجب ان لا نندهش أمام هذا المقطع المباشر من التـأكيد الـلاهوتي عـلى التقوى اذ هي تلك الـطريقـة المستمرة التي يتبعها كالفين: «الحق أقول، ان الله غير معـروف حيث لا يوجـد أي دين أو أية تقـوى»[2]، وبعكس السكولاستيكية (فلسفة القرون الوسطى المتأثرة بأريسطو ـ المعرب)، التي كانت تجهد في أن تصنع من اللاهوت، علمًا هو أسمى العلوم، غير انه علم، فإن « كالفين » كان يتشبث بالصفة الدينيـة العميقة لمعـرفة اشياء الله: «ذلك لا يعـرف إلا عن طريق الايمـان، وهكذا كان القديس «أوغستين» على حق تماماً عندما قال ان من الواجب ان يكون خوف الله والوداعة الهادئـة للقلب في الطليعة لافهام الناس شيئاً ما، فيـما يتعلق بأسرار الله»[3]. فقبل باسكال بوقت طويل، وتـأكيده الاساسي: «اننا لا ندرك الله إلا بواسطة يسوع المسيح »

---

(١) المقطع ٥

(٢) المقطع ٥

(٣) المؤسسة المسيحية ، ١ ، ٨ ، ١٢.

(الافكـار ٥٤٧) اعلن كالفـين: «كل فكـرة يمكن ان ندركها عن الله خارج المسيح هي هوة تبتلع فجأة جميع مشاعرنا. . ان لهم هذا الشعار المشترك في مدارسهم : هو ان الله هدف الايمان. وهكذا يتخلون عن المسيح ويتفلسفون كثيراً ويزقزقون فجأة بسلطان الله المخفي. ولكن ماذا يفيدهم ذلك؟ انهم يغلفون انفسهم في احلام رائعـة بنـوع انهم لا يصنعـون إلا ان يصلوا. لأنهم يعتقدون ان الايمان ليس سوى مضاربة خيالية». ويقول في مكان آخر: «الانجيل ليس نظرية لغوية، بل نظرية حياة يجب ان لا يتناول فقط، الادراك والذاكرة، مثل قواعد السلوك الاخـرى، بل يجب ان يمتلك امتـلاكاً كـاملاً النفس، ويجب ان يحتـل كرسيـه ووعـاءه، في اعمـاق القلب».

يؤكد كالفـين اذن سيادة الله، مكـرراً بمختلف الطرق هذه الفقرة الاولى من دستور الايمـان: «أؤمن بالله، الأب الكلي القدرة» وقد حاول بعضهم ان يجد في هذا التأكيد على السلطة الكاملة للخالق- ترداداً لآراء «دونس سكوت» (Duns Scot) حول ارادة الله المطلقة، يقول احد المؤرخين: «وهكذا على الأرجح ودون شك، انه مدين لسكوت بفكرته عن الله باعتباره ارادة كلية

القدرة، مع رغبة في مناقشة الاسباب»[1] وقد أجاب كالفين مسبقاً عن هذه الاتهامات قال: «عندما نتساءل لماذا صنع الله هكذا؟ يجب ان يكون الجواب: لأنه أراد ذلك. واذا تجاوزنا ذلك الى السؤال: ولماذا اراده؟ فإن السؤال يتناول عندئذٍ شيئاً أكبر واسمى من ارادة الله، مما يستحيل وجوده، فعلى التهور الانساني ان يعتدل اذن فلا يبحث عما ليس كائناً، خوفاً من ان لا يجد ما هو كائن. غير اننا في كلامنا هذا لا نؤيد احلام اللاهوتيين البابويين الذين يمسون القدرة المطلقة لله لأن ما يتشدقون به مدنس، وبالتالي يجب رفضه، كما اننا لا نتخيل إلهاً لا قانون عنده، نظراً لأنه قانون بحد ذاته»[2].

فلنرفض اذن تلك التشبيهات بين سلطة الله المطلقة لدى «دونس سكوت» وسلطة الله لدى كالفين[3]

---

(١) والكر: جان كالفين، الرجل وآثاره، ص : ١٥٩ راجع ايضاً: ف، ويندل ص · ٩٢- ٩٣ ؛ هـ بوا: فلسفة كالفين ص : ١٨ - وما يلي ولوسير: ابحاث كالفينية صفحة ١٩ وفيها يتحدث عن «لاسكوتية كالفين».

(٢) المؤسسة المسيحية (٣- ٢٣ - ٢).

(٣) راجع حول هذا الموضوع: لوسير : ابحاث كالفينية - الفصل ٢ : سلطان الله في نظر الكالفينية «وفكتور مونود: مسألة الله واللاهوت المسيحي منذ الاصلاح، سان بليز : ١٩١٠.

فهذا الاخير قد دافع دائمًا عن نفسه ضد الاتهام الموجه اليه من قبل اخصامه، من انه جعل الله مصدر الشر، وهو الطعن الموجه دائمًا الى الذين يؤكدون على قدرة الله الكلية بمواجهة الثنائية «المانيشية»، والصراع الابدي بين المبدأين: الخير والشر. فلسفياً استطاع القديس أوغستين ان يتخلص من هذه المصاعب بجعله الشر لا كائناً أي نقصاً. وان، ما لاكينونة له لا خالق له. غير ان هذا الحل، العملي في بعضه، لا يصمد أمام التأكيدات التوراتية التي تعتبر الشر نقيضاً ايجابياً لله، وثورة لا نقصاً، كالفين لا يتبع خطى القديس «أوغستين» ومن بعده القديس «توماس» بل يؤكد على الواقع المؤلم للشر والخطيئة، ولكنه لا يقدم حلاً لمسألة مصدرهما. ويعلن فقط ما يلي: «انها نميمة دنيئة جداً ونتنة الباسي تلك الجريمة التي تجعل من الله صانعاً للخطيئة. اني اعلم في كل مكان ان لا شيء يصنع دون ارادة الله. غير اني اؤكد ان ما يصنعه الناس بخبث، هو موجه ومحكوم من قبل الحكم الخفي لله بشكل ليس فيه أي شيء مشترك مع خطيئة البشر، ومجمل نظريتي هو ان الله يوجه (يقود) الأشياء كلها، بوسائل تثير الاعجاب ونجهلها نحن، الى الأغراض التي يرغب فيها ، بشكل ان ارادته الخالدة

الابدية تشكل السبب الأول لكل الأشياء. واعترف ان هناك سراً لا يدرك وهو ان الله يريد ما نتخيله غير معقول اطلاقاً. ومع ذلك اؤكد انه يجب ان لا نتحرى هذا الأمر مدفوعين بحب الفضول وبشكل حاد، لأن براهين الله هوة عميقة جداً»[١].

انه اذن موقف جدلي يعرف ان يتخذه في بعض الاحيان كالفين المعروف عنه انه مفكر كبير.

بعد معرفة الله، تشكل معرفة الانسان القسم الآخر من حكمتنا. ومعرفتنا هذه لأنفسنا مضاعفة:

أولاً: معرفة ما كان الانسان في نية الله، لدى منشئه الأول. ومن ثم معرفة ما أصبح الانسان بعد سقوطه.

بادىء ذي بدء يؤكد «كالفين» تبعاً للكتب المقدسة (تكوين ١ ـ ٢٧) ان الانسان خلق على صورة الله ومثاله مما يعني ان الانسان قد تلقى المميزات التي تجعل منه شخصاً قادراً على ان يكون على علاقة مع شخص الله. انه مخلوق ليكون وجهاً لوجه مع الله. يمكن ان

---

(١) كالفين، الكراريس ص ١٧٦٧ «رد على اكاذيب وريقة».

يكون انعكاساً لله بين الاشياء المخلوقة، مفكراً بأفكار الله، محباً لله مبادلة لحبه، مالكاً لارادة تستطيع ان تتمم بحرية واستقامة ارادة الله: قال: «في هذا الكمال، يملك الانسان حرية الاختيار، ويستطيع بواسطتها، لو شاء، بلوغ الحياة الابدية... ولكن بما ان ارادته تنطوي على الخير وعلى الشر، وان الثبات على الموقف لم يعط له، فإنه لهذا السبب يسقط بسهولة وبخفة كبيرتين»[1].

الانسان اذن حسب تفكير كالفين، خلق من اجل المشاركة مع الله، وتوثيق الوحدة الحقيقية والحية معه، وفي تلك الوحدة نال الحياة، وان الافتراق عن الله، والتمرد عليه، والسقوط ترمي به بعيداً عن الحياة، وتجلب اليه «تشويهاً مرعباً» بينما ان سعادته كامنة في «الاتحاد مع الله».

ثم من جهة ثانية، يجب الاعتبار بما ناله الانسان بسبب سقوطه. «بما ان الحياة الروحية، لآدم كانت أن يكون وان يظل مقترناً مع خالقه، كذلك فإن موت نفسه كان في افتراقه عنه. ويجب ان لا يصاب بالدهشة اذا كان قد حطم ذريته جميعها بسبب ثورته، بإفساده كل

(١) المقطع ١٣.

نظام للطبيعة في السماء وعلى الأرض»[1].

نتيجة السقوط اذن، كانت الخطيئة الأصلية التي يصفها كالفين بأنها «فساد في طبيعتنا موروث» انتشر فوق البشرية بأجمعها، وذلك الفساد كامل. «اجزاء الانسان جميعها، ابتداء من الادراك حتى الارادة، ومن الروح حتى الجسد، مشوبة ومفعمة تماماً بالشهوة»[2]. ان في ذلك تشاؤمية جذرية لا تمنح الانسان بعد سقوطه اية ميزة حسنة. غير ان كالفين يوضح دائمًا ان ذلك الانهيار الكامل لا يتأتى من طبيعتنا، بل من فساد طبيعتنا. الانسان مفسد طبيعياً بسبب الشر ولكن هذا الشر ليس من الطبيعة.

ماذا حدث اذن لحرية الاختيار؟ للقدرية التي كان يتمتع بها الانسان قبل سقوطه؟ هل لا يزال يستطيع الاختيار بحرية من هذه الجهة أو تلك؟ كلا! الانسان فقد حرية اختياره ولم يبق له سوى عبودية الاختيار: «ان كل من يعمل الخطيئة- يقول المسيح - هو عبد للخطيئة، فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونوا احراراً» (يوحنا ٨ -

---

(١) الفقرة ٢٠.

(٢) كلمة شهوة يجب اخذها بمعناها اللاهوتي: الحسد، الكبرياء، الأنانية.

٣٤) الانسان بتمرده الاول على الله، اصبح عبداً للخطيئة، وفقد الحرية، فلا يستعيدها إلا بالنعمة الإلهية، ارادة الانسان اذن مكبلة ومستعبدة بالخطيئة. والخاطئ لم يجرد من ارادته، انما جرد من ارادته السليمة. ويروي كالفين هنا رأياً صادراً عن القديس «برنارد» يبدو لنا واضحاً اقصى الوضوح، وذا اهمية كبيرة لكي نتابع متابعة حسنة مسيرة فكر المصلح: «الارادة من الانسان، وارادة الشر من الطبيعة الفاسدة، وارادة الخير من النعمة الإلهية»[١].

كثيرون صدموا بهذا التأكيد من ان الارادة مجردة من الحرية، ومن انها بالضرورة منجذبة نحو الشر، ذلك لأنهم لا يفرقون بين الحتمية أو الضرورة والاجبار[٢]. الحتمية موجب داخلي به يجد الانسان نفسه ملتزماً، هي استحالة التصرف على وجه آخر بسبب طبيعته، اما الاجبار فهو عنف خارجي يجري تحمله. والانسان بسبب فساده نتيجة للسقوط، ووقوعه في عبودية الشر، يرتكب الخطيئة بارادته لا بالاجبار. «انه يرتكب الخطيئة بسبب

(١) الفقرة ٢٨

(٢) الفقرة ٢٩.

ميل منحرف جداً، لا بسبب انه مجبر بالعنف. انه يرتكب الخطيئة نتيجة لحركة من مسؤوليته الخاصة، لا لأنه مجبر من قبل الآخرين».

يحتار الفلاسفة عندما يتحدثون عن الانتروبولوجيا (علم الحضاره): لأنهم من جهة مضطرون الى الاقرار بضعف الانسان. ولكنهم، من جهة اخرى، لا يعرفون من أين يأتي هذا الضعف ما داموا لا يريدون الاقرار بالسقوط ونتائجه؛ يقول «شيشرون» ان لدينا فقط شرارات من الخير تشتعل طبيعياً في روحنا، ولكنها تنطفىء بسهولة بالآراء الخاطئة والاخلاق السيئة، هم يشبهون النفس بحصان متمرد يجمح بدون قياس بعد ما رمى بفارسه الى الأرض. هكذا النفس، بعد ما ترمي بالعقل وتنصرف الى الشهوة، تصبح جامحة تماماً. فهم اذن يعترفون بضعف الانسان دون ان يقروا السبب. ويلجأ كالفين الى عبارة ينسبها، مثله مثل من في القرون الوسطى، الى القديس «اوغستين» «بسبب السقوط فسدت المواهب الطبيعية في الانسان، أما المواهب فوق الطبيعية أي تلك التي تتعلق بالحياة السماوية فقد نزعت منه تماماً»[1] بمواهب طبيعية يجب ان نفهم الانوار اللازمة

(١) العقرة ٢٨.

لنا لنتمكن من الاتجاه في العالم وفي المجتمع. ورغم القساوة التي ينظر بها كالفين الى الذكاء المجروح بسبب السقوط، فهو يعترف «بانبثاق بعض الشرارات منه»، لكي يبين الفرق بين الانسان والحيوانات المتوحشة.

وبالاخص، ان الحقوقي الذي لم يكن يظهر في شخص المصلح منذ دروسه الحقوقية في «أورليان» و«بورج»، لا يستطيع ان يتجاهل قيمة القوانين التي ترعى حياة الناس في المجتمع[1]. فنراه يمتدح الاتجاه السياسي الذي يميز مسلك سكان المدن.

في الميدان السياسي، نشأ خلاف منذ بعض الوقت حول موضوع مصدر الرأسمالية، والتأثير الذي مارسته البروتستانتية، وخاصة الكالفينية في هذا المصدر. وفي محاولة مشهورة، ترجمت حديثاً الى الفرنسية «أوجد الباحث الاجتماعي الالماني: «ماكس ويبر»[2] (Max Weber) علاقة بين الكالفينية والرأسمالية وقد حصل نقاش اصبح كلاسيكياً حول هذا الموضوع، ونحن لا نستطيع في حدود هذه الدراسة إلا الاشارة اليه والتذكير

---

(١) الفقرتان ٢٥ و ٢٨.

(٢) ماكس ويبر: الاخلاقية البروتستانتية والروح الرأسمالية، باريس- بيون ١٩٦٤.

باختصار ببعض عناوينه[1].

كان «كالفين» أول من رفع الحظر الـذي كانت الكنيسة منذ نشأتها الاولى، قـد اوقعته عـلى الاقراض بالربا، ففي سنة ١٥٤٥، كتب نبيل بريسي يـدعى: «كلود دي ساشين» (Claude de Sachin) الى كالفين، يسأله بلسان احد أصدقائه، الرأي في استثمار ماله، هل يستطيع، وضميره مرتاح، أن يودع مبلغاً من المال لدى المصارف ليستفيد من فـائدتـه؟ اليس ذلك محـظراً في الانجيل الذي يوصي بالاقراض من غير الرجاء بشيء في المقابل؟[2]. رد كالفين، بأن المسألة صعبة، لأن حظر الاقراض بالربا حظراً باتاً معناه اننا نفرض على الضمائر رباطاً اضيق مما يفعله الله، والسماح به، معناه اوخاء الزمام للجشع الجامح، واليكم رأيه: أ ـ ليس في الكتب حظر للاقراض. وقول المسيح (لوقا ٦ ـ ٣٥) يوصي بمساعدة الفقراء دون الرجاء بشيء مقابله، ولا يوصي بعدم الاقراض. وفي مقاطع اخرى من الكتاب المقدس،

---

(١) راجع العرض الكامل «لاندره بييله» «الفكر الاقتصادي والاجتماعي لكالفين، جنيف، ١٩٥٩، ص: ٤٥٣ ـ ٥١٤.

(٢) أوبرا كالفين ١٢ ـ ١١٠

يبدو ان ما هو محظر ليس الاقراض بحد ذاته، إنما اساءة استخدامه، وحتى لو ان تلك الممارسة كانت محظورة على اليهود، فإن ذلك ليس سبباً لحظرهم، لأن وضعنا الاقتصادي والسياسي ليس مشابهاً. يجب الحكم على مسألة الاقراض بميزان العدل. وفي هذا المجال يضع كالفين بعض الاستثناءات كأن يحظر نيل فائدة على حساب الفقير، وألا يضع القارض شروطاً لا يقبلها هو نفسه، وغير ذلك أيضاً. هذا فيما يتعلق برسالته الى ساشين[1].

ويجيز كالفين في كتابه «تعليقات على مختلف مقاطع الكتاب المقدس»، الاقراض بالربا بشرط ان لا يتحول الى ربا فاحش، ويثقل كاهل الفقير، وان يكون ضمن حدود العدالة والبر. في هذا الموضوع كما في غيره، لا يربط كالفين نفسه بأي تقليد، بل يدرس المعطيات التوراتية بالنسبة الى الاحداث الاقتصادية والظروف الموضوعية. لنذكر النتيجة التي توصل اليها «بيبليه» من وراء درسه النصوص درساً جاداً ومؤداها ان «الاقراض بالربا، ليس في رأيه مسألة اقتصادية قبل كل شيء، ولا

---

(١) أوبرا كالفين : ١٠ ـ ٢٤٥

عملاً من اعمال الاخلاق، انما هو حدث يضع الانسان في عمل شخصي أمام الله بكامل مسؤوليته، انه حدث لا يمكن استخراج طبيعته الموضوعية وقياسها، إلا بالنسبة الى عطف المسيح، الذي يعطي كل شيء هويته الحقيقية[1].

موضوعات «ماكس ويبر» و «ارنيست ترويلتش» (Ernest Troeltsch) لا تتناول كالفين نفسه، بل الكالفينية فهي اذن لا تتناول بحثنا مباشرة.

ونلاحظ فقط ان هؤلاء الباحثين الاجتماعيين من مطلع قرننا، في تقريبهم بين الكالفينية والرأسمالية ، قد بينوا مهما كانت النتائج التي توصلوا اليها في ابحاثهم والتي لا تقنعنا، ان الكالفينية مبدأ للحياة، خلق العالم المعاصر، بمعنى انها تؤكد ان الدين ليس قضية شخصية، انما هو يسيطر على الحياة كلها. حتى ان الاحداث الاجتماعية نفسها متأثرة بالمواقف الدينية. ان سلطان الله يمتد على جميع ميادين الوجود، ويحطم كل تفريق مصطنع بين المقدس والزائل. وذاك ما اتاح للمؤرخ «اميل ليونارد» (Emile Leonard)، ان يضع للفصل المخصص

---

(١) اوبرا كالفين ص ٤٧٦

للمصلح الفرنسي، في كتابه «التاريخ العام للبروتستانتية» العنوان الآتي «كالفين مؤسس حضارة»[1].

وذلك التأكيد لسلطان الله يقودنا بعدما استطردنا في الحديث عن فكر كالفين الاجتماعي الى النعمة الإلهية والمقدر. وقبل ان نعرض هذه النظرية ، علينا أن نبدد سوء تفاهم ، اذ لا يعرف كثيراً لماذا تعتبر نظرية المقدر، في العادة خاصة بكالفين، وانه الوحيد الذي ساندها مما يشكل ذماً له ، بينما هي تندرج في خط لاهوتيي «النعمة الإلهية» ، منذ القديس بولس وخاصة في الفصل التاسع من رسالته الى اهالي «رومية»، حتى القديس «توما» مروراً بالقديس «اوغستين». وفي القرن السابع عشر، كانت الموضوع الأكبر الذي نوقش بين الجنسينيين واليسوعيين. لا احد من الذين أرادوا انطلاقاً من الكتب المقدسة، عرض الفكر المسيحي استطاع ان يمر بالصمت على ذلك الموضوع، ومواقف اللاهوتيين الذين ذكرناهم تقترب اقتراباً شديداً من مواقف كالفين. ومن جهة

(١) المجلد ـ ١ ـ صفحة ٢٥٨ ـ ٣٠٩ ـ انظر خاصة الصفحات ٣٠٠ ـ ٣٠٩ واللمحة التاريخية المهمة عن حياة كالفين، ص ٣٥٢ ـ ٣٦٨ «عن كالفين والكالفينية ـ راجع بحث هنري هوزر؛ الاقتصاد الكالفيني ، ص ٢٢٧ ـ ٢٤٢ مجلة التاريخ البروتستانتي الفرنسي ، آذار ١٩٣٥ ص : ٢٢٧ ـ ٢٤٢.

اخرى، فإن البعض اعتبروا ان نظرية المقدر كانت في مركز النظام الفلسفي الكالفيني، كانت حجر القفل نوعاً ما، انتظم حوله جميع بناء تعليمه[1]. اما نحن فلا نرى هذا الرأي صحيحاً، «فالمصلح» يؤكد قبل كل شيء على سلطان الله، وقدرته الكلية وعلى النطاق العام فإن تلك التأكيدات تقود الى القدرة الإلهية، التي هي مغروضة في الكتاب الاول من «المؤسسة المسيحية» في الفصول: ١٦ ـ ١٨».

اما في النطاق اللاهوتي الصرف لخلاص الانسان، فإنه عند تطرقه لمسألة مصدر الخلاص، ومصدر صانع هذا الخلاص، يتناول المقدر، أو كما يجب أن يسميه الاختيار الازلي لله، قال «لن نقتنع ابداً، كما هو مفروض، بأن مصدر خلاصنا هو رحمة الله المجانية، الى ان يصبح اختياره الازلي واضحاً لنا، ايضاً، بحيث ينير لنا بالمقابل نعمة الله، في انه لا ينظر بلا تفريق الى الجميع بالنسبة الى الأمل بالخلاص، انما يمنح البعض ما ينكره على الآخرين. كل انسان يعترف كم ينتقص

---

(١) حول نظرية المقدر، راجع ر . غاريغور لاغرانج : مقدر القديسين والنعمة الإلهية، باريس ١٩٣٦، ج . ديلون المقدر والحرية ، نيوشاتيل ١٩٤٢.

الجهل بهذا المبدأ من مجد الله، وكم ينتقص ايضاً من التواضع الحقيقي ، وذلك بعدم وضعنا كل سبب خلاصنا في الله وحده».

في ذلك التمييز بين العناية الإلهية، والمقدر، بين نظرية سلوك الخلق ونظرية الخلاص، يمكن ان نضع مسألة معرفة، ما اذا كان تحليل اللاهوت الكالفيني بالنسبة للمقدر يمكن ان يكون له مكانه في عرض لفلسفة المؤلف، ما دام ذلك الموضوع يتعلق على الأرجح باللاهوت، غير اننا سنتناوله نظراً للاهمية التي اكتسبها شيئاً فشيئاً في فكره، دون ان ننسى انه متعلق بنظرية النعمة الإلهية.

من جهة اخرى، ان تلك الرسالة عن المقدر اساسية لادراك ما سمي: «الطراز الكالفيني»، هذا الطراز من الرجال المتواضع والمطمئن في وقت معاً، متواضع لأنه يعرف ان كل ما هو، وكل ما يفعل مدين بها لله وحده، ومطمئن لأنه يعرف انه نائل الخلاص برغبة خاصة من قبل الله. «كي نطمئن، ونتخلص من الخوف بين هذا العدد الكبير من المخاطر، والمكائد، والهجمات القاتلة. وبالاختصار كي نصبح في منعة لا نقهر، وعدنا بأن كل ما منحه الآب للحماية لن يفنى ابداً» (يوحنا ١٠ - (٢٧ - ٣٠) يبدو ان كالفين،

لم يعر في مطلع مؤلفاته، اهتماماً كبيراً وقيمة اساسية، لنظرية الانتقاء، ففي طبعة سنة ١٥٣٦ للمؤسسة، نجدها مذكورة بشكل عابر، في مكانين أو ثلاثة امكنة، وعلى الأخص عند تحديده الكنيسة، التي هي في نظره جمعية المختارين، غير ان المفهوم يتوضح في الطبعات اللاحقة، لكنه يبقى مرتبطاً بنظرية العناية الإلهية، فقط في الطبعة الأخيرة الصادرة سنة ١٥٦٠، اعتبر (الانتقاء) من اعمال الخلاص، وعلى علاقة وثيقة بالمسيح. غير ان الجدال كان قد بدأ قبل ذلك، وانطلاقاً من هذه المسألة كان الهجوم يوجه الى فكر الاصلاح. وقد رأى «ايراسم» ان النقاش الذي سيخوضه مع «لوثر» يجب ان يتناول حرية الاختيار، وتناول بالفعل الجواب المقذع الوارد في : بحث عن عبودية الاختيار[1]. وكذلك فإن «البيربيجيوس» الذي التقى بكالفين في مؤتمر راتيسبون (Ratisbonne) المنعقد كمحاولة من «شارلكين» للوفاق بين اللاهوتيين الكاثوليك واللاهوتيين البروتستانت حذره من انه سيهاجمه من هذه الناحية. وفي سنة ١٥٤٢

---

(١) مارتين لوثر: بحث في عبودية الاختيار، ترجمة «دنيس روجيمون» باريس ١٩٣٦ - «ايراسم» محاولة حول حرية الاختيار ترجمة بيار ميسنار، الجزائر ١٩٤٥.

صدر في الواقع بحثه عن: «حرية الاختيار لدى الانسان، والنعمة الإلهية» في عشرة كتب، مهداة للكاردينال «سادوليه» (Sadolet) فرد كالفين مرتين، على ذلك الكتاب: أولاً: في سنة ١٥٤٣ حيث دحض الكتب الاولى في: «رد على اكاذيب «البير بيجيوس» (Albert Pighius)، ويحتوي الدفاع عن العقيدة السليمة ضد حرية الاختيار الخاصة بالبابويين. وفيه الاثبات ان ارادة الانسان مسترقة طبيعياً لعبودية الخطيئة، وفيه معالجة ايضاً لوسيلة خلاصها وتمتعها بالحرية[1]، وهذا الجزء الأول يتناول اساسياً حرية الاختيار. وتسبقه مقدمة مهداة الى «ميلانشتون»، الذي كان كالفين قد ارتبط معه بصداقة عميقة، والذي كان قد طلب منه بشكل ما ان يكتب هذا الرد على «بيجيوس»، اما الجزء الثاني من الكتب الاربعة الاخيرة فظهر في سنة ١٥٥٢ تحت عنوان: «بحث عن المقدر الازلي لله، وبه البعض يختارون ليخلصوا، ويترك الآخرون في ادانتهم، وبه

---

(١) أوبرا كالفين. المجلد ٦ ص: ٢٢٥ ـ ٤٠٤ (النص اللاتيني) وردت الترجمة الفرنسية في الكراريس (١٥٦٦) ص ٢٥٧ ـ ٤١٨، ومما يؤسف له انه منذ تلك الطبعة الصادرة في القرن السادس عشر لم تصدر اية طبعة بالفرنسية عن ذلك البحث المهم.

العناية الإلهية تحكم الاشياء البشرية»[1].

وفي الفترة الواقعة بين ذينك الردين، كان على كالفين أن يخوض نقاشاً حول هذاالموضوع مع «جيروم بولسيك» وكان هذا راهباً كرملياً سابقاً تحول الى البروتستانتية واصبح طبيباً لأحد نبلاء البروتستانت المدعو: «جاك دي بورغون» وهو شريف «فاليه» (Falais) وصديق كبير لكالفين، انسحب الى قصر «فيجي» قرب «جنيف». كان «بولسيك» يحب المسائل اللاهوتية، وكان اشترك في اجتماع قسس جنيف، الذي كان ينعقد كل نهار جمعة، ويسمونه «الاجتماع الرعوي» (Congregation) وخلال هذا الاجتماع الرعوي، كان يلقى بحث عن التوراة. في تشرين الاول سنة ١٥٥١، تحدث احد القسس عن المقدر، فهب «بولسيك» يعارض هذه النظرية بشكل مقذع الى درجة انه اوقف واتهم بالهرطقة، وفي كانون الاول، ترأس كالفين بنفسه الاجتماع الرعوي،، والقى عرضاً عن المقدر مستنداً الى نصوص عديدة من التوراة[2]. وفي سنة ١٥٥٧ رد

(١) أوبرا كالفين المجلد الثامن ص ٢٤٩ - ٣٦٦ - وفي الفرنسية الكراريس ص : ١٢١٩ - ١٣١٢.

(٢) أوبرا كالفين المجلد ٨ - ص ٨٥ - ١٣٨ (بالفرنسية) انظر ايضاً كالفين: رجل الكنيسة (١٩٣٦) ص: (٥٨- ١٣٠).

كالفين ايضاً على «أكاذيب مشوش حاول بواسطتها ان يحقر نظرية المقدر الازلي لله» ، وكان رده عنيفاً وموجهاً الى كاتب مقنع افترض انه، «سيباستيان كاستيليون» (Sebastien Castellion)، وعلى اثر تلك المعارك المتعددة، اكتسبت نظرية الاختيار شيئاً فشيئاً اهمية لم تكن لها في البداية، في الفكر الكالفيني، واندفع المؤلف حتى الادلاء بأكثر التأكيدات كلية، وفي الوقت نفسه لم يتردد عن الوقوف امام سر النيات الاخيرة لله [1]. مما قاده الى كتابة الفصول الأربعة من الكتاب الثالث «للمؤسسة» (٢١- ٢٤) ، التي تشكل بحثاً مستقلاً عن هذا الموضوع.

لنرسم الآن الخطوط الكبيرة لعرض تلك النظرية [2].

المقدر هو الرأي الأزلي لله حدد به ما يريد ان يفعل بكل انسان، لأنه لم يخلق البشر جميعهم لمصير واحد، بل امر لبعضهم بالحياة الابدية، وامر للآخرين

---

(١) الفقرة ٣٥ .

(٢) راجع «لوسير» المقدر حسب كالفين في ابحاث كالفيبية ص : ٥ ٢ ـ ٣١ الاختيار الخالد لله، اعمال المؤتمر العالي للاهوت الكالفيني جنيف (١٩٣٦).

باللعنة الابدية[1].. وهذا المقدر ليس علمًا، مسبقاً من الله، لأن ليس في معرفته لا ماضٍ، ولا مستقبل، فالاشياء جميعها حاضرة له، وتحويل المقدر الى علم مسبق، يجعل من الله مشاهداً للاشياء البشرية لا صانعاً لها أي سببها الاول. الله لم يخترنا، لأنه كان يتوقع اننا سنؤمن ، انما اختارنا لكي نؤمن. اختياره سبب ايماننا، اذن نحن ننال الخلاص بنعمة صافية من الله، بنية خاصة من الله[2].

السقوط قد اغرق البشرية في الضلال الكامل. وقد نفي الانسان من حضور الله، من المشاركة مع الله، والخطيئة الأصلية المنتشرة بين فروع آدم جميعهم، جعلتهم مذنبين تجاه الله العادل القدوس، من ذلك الضلال وتلك الادانة العموميين، ينقذ الله بنعمته الذين اختارهم، منذ الأزل المطلق، ويدع في اللعنة الآخرين، في الأولين، يظهر رحمته بواسطة يسوع المسيح وفي الآخرين يظهر عدله وقصاص الخطيئة. لا يوجد فضائل، ونواقص يمكن ان تحدد لله مواقفه من العفو أو

(١) الفقرة ٣٢

(٢) المقطع ٣٠

موقفه من الادانة، اللذين تحددا منذ خلق الكون.

وبسبب عبودية الاختيار، فإن الانسان المكبل بقيود سلطة الشر، عاجز عن أي عمل جيد، حتى لو كان الرغبة في التوجه نحو الله، الايمان هبة من الله، وهو علامة طيبة الله نحونا، الداعي لنا اليه، محذراً إيانا بنعمته الالهية التي هي دائماً الاولى، يقول بولس الرسول: «اي شيء لك لم تأخذه، وإن كنت قد اخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ (رسالة الى أهالي كورنثيوس ٤ ـ ٧).

«لا يقدر احد أن يأتي اليَّ، ان لم يجتذبه الآب الذي أرسلني، قال يسوع المسيح: (يوحنا ٦ ـ ٤٤). اذن في ذلك تأكيد على المجانية التامة للخلاص بدون مقابل الذي يتم بالعفو أولاً، ثم بالحياة المسيحية والأعمال، وهو دليل عمل الله وحضوره فينا.

في النعمة الالهية، تترك عبودية الاختيار مكانها لتحل فيه حرية الاختيار. والمسيحي يجد من جديد بسبب فعل الروح القدس الحرية والتحرر تجاه عبودية الخطيئة. وبينما لم يكن له قبل حلول النعمة الالهية، حرية التصرف إلا في نطاق الشر ولكن بشكل إرادي،

ها هو بعد حلول النعمة الإلهية ، يستطيع ان يتصرف ضمن نطاق الخير، لأن ارادته تصبح موجهة الآن، ومدعومة من قبل روح الله، ليتمم ارادته.

المقدر يضع تماماً الخلاص، أي العفو، والمصالحة والتبرير لكي نستعمل العبارات اللاهوتية، ضمن قرار الله المتخذ منذ الازل الكلي، ولا دخل لأي عنصر بشري في التأثير في هذا القرار، وهو يظهر في الوقت المعين، والانسان الذي يكون هدفاً لنعمة الله، يتلقى حينئذٍ في نفسه دلائل اختياره المتمثلة، بالايمان بيسوع المسيح، والوثوق بعفوه، وامكانية القيام بالعمل الصالح، والغبطة بحب الله، وبأنه محبوب منه ـ منذئذٍ، وعرفاناً بالجميل، يقف كل قواه على خدمة من منحه النعمة، ويعمل من اجل مجده، الوثوق بالاختيار يمنح المؤمن قوة كبيرة وسط المعارك والخصومات .«وهذا ما يجب اخذه بعين الاعتبار لكي نناضل ضد العدد الكبير من التجارب التي يعدها الشيطان لنا لتحويلنا عن الطريق السوي، اذ بدون ذلك، ماذا يحل بقوتنا ومقاومتنا عندما نجد انفسنا نهاجم من الجهات جميعها، ونرى حولنا مئات الألوف من الموتى؟ بما ان الله لا يقهر، فلندرك اذن ان خلاصنا في

يد الله»[1] وتلك الثقة قد اوجدت رجالاً ذوي شجاعة بطولية لا يتراجعون امام أي خوف عندما حلت دعوة الله فيهم، ومنحوا ارادة نصر ارادته وشرفه.

يمكننا ان نفهم ان اعتراضات عديدة قد ظهرت عندما كان كالفين لا يزال حياً، وبعد ذلك، ضد تلك التأكيدات. ونحن لا نستطيع ضمن حدود هذا الكتاب بحثها، انما نقول فقط كلمة عن تلك التي تعتبر ان المقدر يقضي على مسؤولية الانسان[2]. يقول كالفين «يقولون ما الذي يدفع الله الى ان يمتلىء غضباً ضد مخلوقاته التي لم تستثره بأي تهجم. واضاعة الذين يحلو له اضاعتهم، وخرابهم، انما هو شيء يناسب ظلم طاغية، اكثر مما يناسب عدالة قاضٍ. وهكذا يخيل اليهم ان للناس سبباً وجيهاً للشكوى من الله، اذا كان مصيرهم، بارادة منه، ودون استحقاق منهم قد تعين مسبقاً للموت الابدي، اليكم الجواب: كل انسان خاطىء، وهو شخصياً مذنب أمام الله، بسبب خطيئاته التي ارتكبها بملء ارادته. ان الله لا يضرى ضد المذنبين، بل

(١) احتماع رعوي حول الاحتيار الازلي، في كالفين رجل الكنيسة ص ٧١.

(٢) راجع لوسير، الحرية والمسؤولية في نظام كالفين، باريس (١٨٠٥)

يخلص بعضهم بنعمته الإلهية، بإمكانه ان يتركهم جميعاً لعقاب عادل، ولكنه ينقذ عديدين من الضياع، هل يلام على ذلك؟ ما دمنا جميعنا فاسدين ومصابين بعدوى الآثام، لا يمكن لله ان لا يحقد علينا، وهذا لا بسبب ظلم استبدادي ، بل بسبب عدالة عاقلة، واذا كان صحيحاً ان البشر جميعهم، بسبب وضعهم الطبيعي، مذنبون يستحقون الحكم عليهم بالموت، فمن أي ظلم، ارجوكم، يشكو اذن الذين حكم الله عليهم مسبقاً بالموت؟ انهم واجدون سبب ادانتهم في ذواتهم».

ولكن الله في الوقت نفسه الذي يعلن فيه عدالته المخيفة للخاطىء، يعلن بواسطة الانجيل عن رحمته وعفوه، وبينما البشر جميعهم، في ميدان الثواب لا يستحقون سوى الموت بسبب تمردهم على الله، فإن الله في ميدان النعمة، يخلص بدون شروط الذين اختارهم من اجل الحياة الابدية، وذلك بفعل المسيح.

كل ذلك من الطريقة الاوغستينية - ويمكن ان ندهش من ان اللاهوت الكاثوليكي في القرن السادس عشر، رغم اندفاعه لمحاربة الهرطقة ، لم يعترف لصاحب صفحات المؤسسة جميعها بسمة دكتور الكنيسة الكبير. كما يمكن ان ندهش ايضاً من ان الجنسينيين وهم الورثة

الروحيون لأغوستين هذا نفسه، في القرن السابع عشر، لم يقروا هم ايضاً بهؤلاء الكالفينيين، الذين حاربوهم بضراوة كأخوة لهم. انها الأحجية الكبرى في خلافاتنا البشرية بحيث ان الاقربين يكونون في بعض الاحيان الد الاعداء.

عندما نقرأ «المؤسسة المسيحية» يتوجه فكرنا غالباً الى«باسكال» فبينه وبين كالفين كثير من نقاط التشابه: «النفس مغارة فيها من جميع القاذورات والنتانات» يقول كالفين[1]. ويقول باسكال[2]: «كم ان قلب الانسان اجوف ومملوء بالقذارة» - يقول كالفين: «اقتناع بشكل لا يتطلب أسباباً، ومعرفة بشكل تستند الى سبب جيد، بقدر ما ان فكرنا لا يجد راحة اضمن واكثر ثقة في أية أسباب اخرى»[3] ويقول باسكال: «للقلب أسبابه التي لا يعرفها العقل»[4] اضافة الى عدد آخر من العبارات المتشابهة غير ان «باسكال» كان بعيداً جداً عن الكالفينيين، لأنه كان يشير الى بعض المقترحات عن

---

(١) المؤسسة المسيحية ١ - ١٥ - ٥

(٢) «الافكار» ١٤٣.

(٣) المؤسسة المسيحية ١ - ٧ - ٥

(٤) الافكار - ٢٧٧

المقدر بشكل يسيء الى معناها في رأينا[1]. وكان من جهة اخرى يلومهم بشدة على الانفصال. غير ان العرض الذي يقدمه في الكتاب نفسه، بعد ايجازه موقف المولينيين وموقف الكالفينيين، حيث يعبر عن نظرية «الجنسينيين» الذين يدعوهم مؤيدي القديس «اوغستين» ان ذلك العرض يمكن ان ينال تأييداً قوياً من قبل مؤيدي كالفين، ما عدا نقطة واحدة خاصة من الفكر الجنسيني عن «الصالحين المؤقتين».

وجماعة «المرفأ الملكي» (بور رويال) اصبحوا في آخر القرن السابع عشر اعتى المعارضين للبروتستانت بدون شك خوفاً من ان يعتبرهم خصومهم كالفينيين مقنعين. وقد كتب «آرنو» (Arnaud) و «نيكول» حول اقدمية الايمان على نظرية «الاوخاريستيا» (Eucharistie)، مجلدات ضخمة لكي يدحضا رأي القس «جان كلود» ثم كانت مناقشة حادة مع جوريو (Jurieu) الذي رد في كتابيه المقذعين: «فكر م. آرنو» و «الجنسيني المؤمن بسفسطائية عقيمة»، انها خلافات مؤلمة وحادة بين

---

(١) باسكال: كتابات حول النعمة، المجلد الحادي عشر من طبعة برونشفيغ مايجور ص ص ١٣٣. الافكار ٨٦٢.

لاهوتيي النعمة هؤلاء، الذين اضطهدهم جميعاً لويس الرابع عشر، ونفاهم، وفرقهم، وقد كان عليهم أن يقروا بالتوافق العميق الكامن في طيات كتاباتهم[1].

غير اننا نشير الى فرق بين اللاهوتين، يظهر للوهلة الاولى نظرياً جداً، ولكن نتائجه العملية مهمة جداً، فالجنسينيون والكالفينيون رغم انهم جميعاً من انصار المقدر، يختلفون حول الوقت الذي أصدر فيه الله قرارات الانتقاء، واللعنة. كالفين يعتقد ان القرار صدر قبل خلق الكون، منذ الازل الكلي، اذن قبل السقوط. فهو فوق الزمن. اما «جنسينيوس» فيعتقد ان القرار متأخر عن السقوط ويتناول البشر الساقطين، فهو اذن تحت الزمن. وبالتالي فإن السقوط يرتدي بالنسبة للجنسينيين اهمية كبيرة، فالخطيئة بظهورها في العالم عدلت خطة الله، فنتج عن ذلك هذه الغمامة المظلمة التي تغلف بكآبتها الفكر الجنسيني. ان قرار الله بالنسبة الى الكالفينيين لم يتعدل نتيجة للسقوط. حتى ان الانسان بتمرده لم يؤثر في نية الله. وينتج عن ذلك تأكد من

---

(١) راجع مقالنا. اللاهوت الجنسيني واللاهوت المصحح، ابحاث لاهوتية موبليه، ١٩٤٣ رقم ١

ثبات غايات الله، مما يشكل مصدراً للقوة والثقة المطلقة، الله لا يتغير ابداً[1].

مؤلفات كالفين اذن تشكل عمل عبادة لله السيد الكلي القدرة، والكلي الرحمة، وقراءتها تنقذ الفكر البشري من عجرفته ومن اكتفائه، وتوجهه عن اقتناع نحو خدمة الذي يملك كل شيء، والذي يجب ان يعود اليه كل شيء، كما لسيد المجد.

---

(١) راجع هنري بريموند، التاريخ الادبي للشعور الديني في فرنسا، المجلد٥ ، مدرسة البور - رويال ، باريس ١٩٢٥ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ : في الملاحظات.

مؤلفـــات كالفـــين

ـ المؤلفات الكاملة (Joannis Calvini opera quae suspersunt omnia) : طبعها : « بوم كـونيتز وروس » «برونشفيغ» ١٨٦٣ ـ ١٩٠٠ ٥٩ مجلداً (نشير اليها بأوبرا كالفين).

ـ المجلد الأخير يحتوي على تاريخ حياة الكالفينية، كتبه د. ا. اريكسون حتى سنة ١٩٠٠، بعد هـذا التاريخ راجع و. نيزل ـ تاريخ حياة كالفين (١٩٠١ ـ ١٩٥٩) ميونيخ ١٩٦١ ـ انـظر ايضاً : تـاريخ حيـاة كالفين في التاريخ العام للبروتستانتية لأميل ـ ج ليونارد ـ باريس ١٩٦١. المجلد الأول ص : ٣٥٢ ـ ٣٦٥.

مؤلفات جان كالفين - باريس - منشورات دي سير (De sers)

١٩٣٤ - ١٩٣٦ - ٣ مجلدات: أ: دينيات كالفين (لوسير) ؛ ٢ : ثلاثة ابحاث (رسالة الى سادوليه ، بحث صغير عن «السين» المقدس، بحث عن الفضائح) (ا. م. شميدت)، ٣ : قسم اليمين (ا. م. شميدت).

- كالفين : رجل الكنيسة - جنيف : ١٩٣٦ (دومينيسيه)

- المؤسسة المسيحية

الطبعة الاولى باللاتينية ١٥٣٦.

الطبعة الثانية باللغة اللاتينية ١٥٣٩ - ترجمت الى الفرنسية من قبل المؤلف سنة ١٥٤١ (طبعة حديثة : ج: بانيه : ٤ مجلدات، باريس، منشورات «لي بيل ليتر» (١٩٣٦-١٩٣٩)

الطبعة الاخيرة اللاتينية، في حياة كالفين ١٥٥٩، ترجمت الى الفرنسية في سنة ١٥٦٠ (طبعات حديثه :ج. د. بونوا ، باريس . فرين ١٩٥٧ ، ٥ مجلدات ، طبعة

الجمعية الكالفينية في فرنسا (١٩٥٥ـ ١٩٥٨) جنيف، لابور وفيدس: ٤ مجلدات باللغة الفرنسية المعصرنة قليلاً.

- **مجموعة الكراريس أي الابحاث القصيرة للسيد جان كالفين** نشرها: ثيودور دي بيز، جنيف ١٥٦٦ (نشير اليها بكراريس).

- من بين ابحاث كالفين، نشر حديثاً بشكل منفصل ما يلي: بحث في الذخائر ينبعه اعتذار كالفين للسادة النيكوديميين، منشورات البير أوتين باريس ١٩٢١.

- **مقالات الكلية المقدسة**: للاهوت في باريس - منشورات ج . دي سينارلين، جنيف ١٩٤١.

- **الطريقة الحقيقية لاصلاح الكنيسة المسيحية** وتهدئة الخلافات القائمة فيها، منشورات ا. فوكس جنيف ١٩٥٧.

- بحث قصير عن «السين» المقدس،منشورات هـ . شاتيلين ، باريس ١٩٥٩.

كتب تعاليم دينية

● كتاب دين سنة ١٥٣٧ منشورات ب. كورتيال: عنوانه تعاليم مسيحية مختصرة- باريس ١٩٥٧

● كتب دين سنة ١٥٤٢، منشورات أ. لوسير، باريس ١٩٣٤.

● تعليقات حول الكتاب المقدس (طبعات حديثة).

● المزامير: مجلدان باريس - ١٨٥٩.

● العهد الجديد : ٤ مجلدات، تولوز ١٨٩٢ - ١٨٩٤.

● التكوين: جنيف ١٩٦١ ، رسالة الى اهالي رومية: جنيف ١٩٦٠ - والى اهالي غالاطيا: والى اهالي أفسس، والى اهالي فيليبي والى اهالي كولوسي، جنيف ١٩٦٥، (منشورات الجمعية الكالفينية في فرنسا).

- مراسلات

● المجلدات : ١٠ - ٢٠ أوبرا كالفين.

● جول بونيه، الرسائل الفرنسية لكالفين -مجلدان باريس ١٨٦٤.

● أ. ل. هيرمينارد، مراسلات الاصلاحيين في البلدان الناطقة بالفرنسية (١٥١٢ - ١٥٤٤) ٩ مجلدات، جنيف (١٨٦٦ - ١٨٩٧).

● أ. م. شميدت: رسائل كالفين الانكليزية (١٥٤٨ - ١٥٦١) باريس: ١٩٥٩.

المختـــارات

أولاً: الفلسفة الصحيحة والفلسفة الخاطئة

١ـ الفلسفة والوحي

ان تكون الحقيقة شيئاً ثميناً، الجميـع يعترفـون بذلك... يحظر ان نرمي جانباً باحتقار هبـات الله، والفلسفة هبة سامية من لدن الله.

الله نفسه هو الذي دفع جميـع الناس المتفـوقين الذين نهضوا خلال الاجيال، الى ان ينيروا العالم من أجل معرفة الحقيقة. غير ان الفرق بين كتاباتهم والعقيدة التي خصصها الله بسلطانه كي تكون مقدسة بالنسبـة للجنس البشري، شاسع جداً، ففي الاولى لا تجد إلا قسماً ضئيلاً من الحقيقة، ومنه تستمـد تذوق حـلاوتها وطعمها اللذيذ في سبيل المعرفة. وفي العقيدة المقدسة

تطغى وفرة كاملة، تسمو بروحك سمواً كاملاً. في الأولى الظلال والصورة، خاضعان لنظرك يحرضانك على حب الله دون ان يجعلاه بذلك قريباً مألوفاً لك. وفي الأخرى، تعرض لك حقيقة صلبة، فتستطيع ان تعرفها بالغة وايضاً ونوعاً ما، تستطيع ان تلمسها. في الاولى، تجد بذاراً كأنه مخنوق وفي الاخرى، تجد الثمرة في نضوجها. في الاولى، تجد شرارات صغيرة تضيء الطريق بشكل انك تفقدها عندما تصبح في وسط المسيرة، أو على الارجح لا تستطيع ان ترشدك الى الطريق بل الاخذ بيدك كي لا تتيه مدة أطول. اما من العقيدة، فينبثق على العكس ما يشبه مشعل النور من قبل روح الله، أو على الأرجح شمس تبرق بكل عظمتها لتنظم الحياة حتى آخر دقيقة، وتقودك الى سعادة الخلود. انظر الآن أين يجب ان تتقدم، وعلى أية اسس صلبة يجب ان تستند، (رسالة الى مجهول. أوبرا كالفين ٣٣٠ - ٣٣١)[١].

٢ـ فلسفة خاطئة

القديس بولس يعني بكلمة الفلسفة هذه ما يصنعه

(١) لجأنا الى ترجمة «جان بواسيه» كالفين ص ١٢٥

البشـر ويجدونـه بأنفسهم، عنـدما يـرغبون ان يكـونوا حكماء، بواسـطة حواسهم الخـاصة، وتحت غـطاء من العقل ويبدو محتملاً على قدر ما في الظاهر. لأنه لا توجد مشكلة في رفض اختراعات البشر عندما لا يكون لها شكل ولا لون، من تلك التي تهدم المدارك برأي خاطىء من الحكمة. او اذا احببنا وفي كلمة، فإن الفلسفة ليست شيئاً آخر سوى كلام مقنع يتسرب بلطف الى عقـول الناس عن طريق الحجج الجميلة والمسلية. اعترف ان براعات الفلاسفة جميعها ستكون كذلك. اذا ما شاؤ وا ان يضيفوا شيئاً من عندهم الى كلام الله. ولهذا فإن الفلسفة لن تكون شيئاً غير تضليل العقيدة الروحية، اذا خلطت مع المسيح. ولكن، لنتذكر ان تحت تلك الكلمة فلسفة، ادان القديس «بولس» فقط جميع الآراء الخاطئة المصنوعة في رأس البشر، مهما كان لون العقل الذي تتلون به.

(تعليق على الرسالة الى اهالي كولوسي ٢٠٨)

وعـدا ذلك، لنعلم اننـا في طبيعتنا لا نملك لا الصبر ولا العقل من اجل ان نصغي الى الله، اذ ان مهمته ان يرينا ما يجب ان نأخذه بالاعتبار في اعماله، لنستفيد منه. صحيح ان الوثنيين قد تنافسوا بدقة على

اسرار الطبيعة، ولم يخف عليهم شيء تقريباً، حسناً! ولكن ذلك كان بغرض التسلية وعدم الوصول ابداً الى الله، اذ اي عقوق في ان ينقب الناس بعناية في اعمال الله جميعها، ولا يفكروا ابداً بالخالق... اذن ملعونة تكون مثل تلك الحكمة التي تتسلى بأن تدرك بدقة تلك الاشياء السفلى ومع ذلك تحتقر الخالق.

وعدا ذلك ايضاً، من الاكيد ان الله اعطى الفكر الى الذين عالجوا نظام الطبيعة بحذق ومهارة. ولكنهم بقدر ما لم يسمعوا الله يتكلم، ولم يأخذوا كلامه ليتوجهوا باستقامة، فإنهم ضلوا الطريق، اذ ان الشيء الرئيس يكون في الانقياد لله والتأمل في مجده الذي يبدو لنا في اعماله جميعها، لم يفعلوا ذلك، وهكذا، لنلاحظ جيداً، عندما نقرأ هؤلاء الفلاسفة الكبار، أو نسمع الحديث عنهم، ونرى انهم عرفوا الاشياء التي تبدو لنا غير مفهومة، انهم بالنسبة لنا مرايا من العمى الموجود في الناس جميعاً، الى ان يعلمهم الله في مدرسته، هل نحن اكثر حذقاً من هؤلاء؟ يلزمنا الكثير لنصبح مثلهم. ورغم ذلك نرى انهم لم يتذوقوا شيئاً من الله. وهكذا عندما نريد ان ندرك اعمال الله، علينا أن لا نثق ابداً بمهارتنا، ولا نفترض مسبقاً فضيلتنا الطبيعية، بل فلنصغ

الى ما سيقوله الله لنا، وعندما نتعلم بأقواله، لنسير حسب مسلكه، عندئذٍ سندرك أعمال الله، فنطبقها على علمنا وعملنا.

(تعليق على أيوب ٣٧ ـ ١٤)

٣ ـ ابيقوريون ورواقيون

ما من شك أبداً في ان الفلاسفة الابيقوريين، تبعاً لوقاحتهم المعتادة، قد عذبوا ذلك الشخص الطيب والقديس (القديس بولس)، وفي ان الرواقيين أيضاً قد هبوا بعناد ضده بجميع حججهم المعوجة ومفاجآتهم الحاذقة. ولكننا نستطيع ان نرى جيداً في النهاية ان بولس لم يخض العراك كسفسطائي وانه لم ينزلق الى مناقشات عقيمة من الكلام، بل انه حافظ على التواضع الذي يوصي به الغير فمن واجبنا أن نفعل الشيء نفسه كي نضع في الطليعة ما هو حازم، وذلك بدفعنا بتواضع وقوة الحذلقات الطائشة. ولنحذر دائمًا من ذلك الخطر الذي يشكله الطموح الجامح . أو بعض الشهوة المجنونة لاظهار مهارتنا، من أن نفتتن بظروف لا طائل تحتها ودنيوية.

وعـدا ذلك ، فـإن القديس لـوقا، يـذكر هنـا بدعتين، هما: - رغم انهما متعاكستان تماماً ومتنازعتان، (متعارضتان) الواحدة مـع الأخرى، مشـوبتان كلتـاهما بنقـائض متعـاكسـة. بـالنسبـة لـلأبيقـوريـين، انهم لم يـكتـفـوا بـتـحـقـير الآداب الحسـنـة والـعـلوم الليبـراليـة، بـل هم يحقـدون عليهـا بشكـل ظـاهـر ومفضوح. وفلسفتهم تقوم على ان طول الشمس قدمان، وأن العالم مؤلف من جواهر فردة، أي من ذلك الغبار الدقيق الذي نراه متطايراً في الهواء في اشعة الشمس، انهم بهذا المنحى يمحون تلك البراعة المثيرة للاعجاب التي نراها في خلق العالم، وعندما اقتنعوا مائة مرة، لم يخجلوا من ذلـك اكثر من الكـلاب. ثم انهم اقـروا في كلمة واحدة وجود آلهة، غير انهم زعموا ان هؤلاء الآلهة يقيمون حسب رغبتهم في السماء. ولا يعملون شيئاً سوى الطعام الطيب، وان كـل غبطتهم منحصـرة في البطالة. وكما انهم ينكرون ان العالم خلق وكون من قبل الله، فهم ايضاً يتخيلون ان الاشياء البشرية منطلقة الى المغامرة، وانها ليست محكومة بالقدرة السماوية. اللذة هي بالنسبة اليهم صاحبة السيادة، ولا يعنون بذلك لذة حقيرة، ومنفلتة، وانما لذة تجعل باغـراءاتها ، النـاس

الميالين كفاية واكثر بطبعهم الى افلات الزمام لشهواتهم الجسدية، يضلون اكثر فأكثر وخلود النفس كان في نظرهم شبه خرافة. وهكذا كانوا يسمحون للاجساد ان تنطلق على سجيتها.

اما الرواقيون، فهم يقرون أن العالم خاضع للقدرة الالهية، غير انهم بعد هدا الاقرار، يفسدون هذه النقطة أو هذا القسم من نظريتهم بتفسير لا معنى له أو هو على الارجح رؤيا حمقاء. اذ هم لا يقرون ان الله يحكم الناس والعالم بالرأي ـ أو العدالة والفضيلة. ولكنهم يخترعون سرداباً معقداً (لابيرنتا) من ارتباط الاسباب، بنوع ان الله نفسه، كونه ملتزماً بحتمية المقدر، منجرف ومدفوع بالعنف مع آلة السماء كلها... صحيح انهم يجعلون الله فضيلة، إلا أنهم لا يدركون ما هي الفضيلة الحقيقية، وينفخون البشر بثقة باطلة ومتكبرة، بشكل، ان هؤلاء البشر يتزينون ببقايا الله. اذ رغم ان الفلاسفة جميعهم قد الغوا نغمة الروح القدس، لم تقم بدعة بينهم ملأها الفخر والاعتزاز بشكل أكثر غطرسة مما فعلوا هم. كل محتواهم وقوتهم لم يكونا سوى خبث متصلب وعنيد. لقد انتقلت اذن فضيلة تثير الاعجاب من الروح القدس الى القديس «بولس» ، لأنه مكث

صامداً ثابتاً في النقاء الكامل لانجيل السيد، بين مثل تلك الحيوانات المفترسة، التي كانت تحاول ان تشد به هنا وهناك الى آرائها الخاطئة، وتحمّل بقوة واثقة صفاقة هؤلاء الكلاب الابيقوريين، بقدر ما تحمّل اطمئنان الرواقيين ومفاجآتهم المراوغة.

وما دمنا في هذا المجال نستطيع جيداً ان ندرك بوضوح اكثر في هذا، اي تناقض يقوم بين الحكمة العلوية والصبر الجسدي، ورغم ان الشعب بأجمعه نظر الى الانجيل باحتقار وبغض، الى درجة مهاجمته في بعض الاحيان، فإن الفلاسفة كانوا في ذلك حملة الاعلام والقواد الرئيسيين. اذ ان فيهم بشكل رئيس ما ذكره القديس بولس نفسه عن حكمة الجسد، من انها عدوة صليب المسيح (رسالة الى اهالي كورنثوس ١ ـ ٢١) بنوع ان لا احد صالح لتلقي مبادىء الانجيل، إلا اذا تخلى اولاً عن كل حكمة.

(تعليق على الأعمال ، ١٧ ـ ١٨).

٤ ـ معرفة الله ومعرفة الانسان

مجمل حكمتنا كله تقريباً، الذي يستحق رغم كل حساب ان يعتبره صحيحاً وحكمة كاملة، واقع بين

جزأين وهما كما يلي: بمعرفتنا الله، يعرف كل منا نفسه ايضاً.

وعدا ذلك ، رغم انهما متحدان الواحد مع الآخر بكثير من الروابط، ليس من السهل التمييز ايهما يتقدم وينتج الآخر. اذ بالدرجة الاولى ما من احد يمكنه ان يتأمل نفسه، الا ويحول، فوراً حواسه نحو الله، الذي به يحيا، وبه قوته، فليس غامضاً إلا المعطيات حيث ترقد كرامتنا. وتلك المعطيات ليست اطلاقاً منا، حتى ان قولنا وحزمناليسا شيئاً خارج وجودهما في الله والاسباب التي يستمدانها منه.

وفوق ذلك، وبواسطة الخيرات التي ترشـح من السماء علينا، نقطة نقطة، نتجه في سواق صغيرة الى النبع. وكذلـك بتلك الكمية الصغيـرة الهزيلة، فـإن اللانهاية من الخيرات جميعها الكامنة في الله تظهر بشكل افضل أيضاً. وكذلك وبشكل فريد فإن الخراب البائس، الذي نتخبط فيه، نتيجة لعصيان الرجل الاول، يضطرنا الى رفع انظارنا نحو الاعلى؛ لا فقط من اجل ان نشتهي من هناك الحصول على الخيرات التي تنقصناكجماعةمن الناس البؤساء الخالي الوفاض الجشعين ولكن ايضاً من

اجل ان نوقظ من الخوف وبهذه الوسيلة نتعلم ما هو التواضع.

اذ كما نجد في الانسان عالماً من جميع انواع البؤس منذ ان جردنا من زينات السماء، هكذا عرينا يكتشف بخجل كبير كمية كبيرة من الشنار يجعلنا نشعر بالخجل والارتباك. ومن جهة اخرى، من الضروري ان يأخذ الوعي بيدنا خاصة ليخلصنا من شقائنا، ولنقترب على الأقل شيئاً ما من ادراك الله. ولهذا السبب نجد انفسنا انطلاقاً من الشعور بجهلنا، وباطلنا وفقرنا، وعاهتنا، لا بل بالانحراف والفساد، مسوقين الى معر اننا غير واجدين في أي مكان آخر غير الله، وضوحاً حقيقياً من الحكمة وفضيلة حازمة، ورفداً مستقيماً من الخيرات، وصفاء من العدالة، بالقدر الذي نجده فيه الى درجة اننا نمتلىء تأثراً ببؤسنا عندما نتأمل خيرات الله، وعدم قدرتنا على الطموح، والوصول اليه، عن رويّة إلا اذا بدأنا بعدم الرضى عن انفسنا بشكل كامل. ولكن هل يوجد الانسان الذي لا يرتاح للخلود الى نفسه، وكذلك لا يخلد الى نفسه طالما لم يعرفها، اعني عندما يعظم هبات الله باعتبارها زخرفات غنية ونبيلة، جاهلاً بؤسه، أو متناسياً إياه؟ وهكذا فإن معرفة انفسنا لا

تكتفي بتحريض كل منا على معرفة الله بل على كل منا ان يكون مقاداً بها، كما يقاد باليد، الى إيجاده.

ولكن رغم وجود رابط متبادل بـين معرفـة الله ومعرفة انفسنا، وان كلاًّ منهما متعلقة بالاخرى، فـإن النظام الجيد للتعليم يتطلب في الدرجة الاولى ان نعالج أولا ماهية معرفة الله، لننتقـل بعد ذلـك الى النقطة الاخرى.

(المؤسسة المسيحية ١ ـ ١ ـ ٤)

ثانياً: معرفة اللــه

٥ ـ ماذا تعني معرفة اللــه.

اني افهم ، ان معرفتنا الله لا تكون فقط عندما نسمع كذا بوجود اله ما، بل عندما نفهم ما يجب علينا أن نفهم عنه، وما هو لازم لتعظيمه، وبالاختصار ما هو ملائم. اذ اننا، اذا شئنا الحق، لا نقول ان الله معروف حيث لا يوجد أي دين أو أية تقوى. . .

لا يكفي ابداً ان نعرف بشكل غامض انه يوجد إله ما جدير بأن يعبد وحده، اذا لم نكن مقتنعين في الوقت نفسه ، وبتصميم شديد، ان الله الذي نعبده هو مصدر الخيرات جميعها فلا نسعى الى شيء (خارجه).

اليكم ما اعني: يجب ان لا نكتفي بالايمان ان الله بعد خلقه الكون، يدعمه بقوته اللامتناهية ويضبطه بحكمته، ويحافظ عليه، ويحميه بطيبته، وانه بشكل خاص يعتني برعاية الجنس البشري بعدالة واستقامة، ويسانده برحمته الإلهية، ويضعه تحت حمايته، بل علينا ان نؤمن ايضاً انه يمتنع في اي مكان آخر ما عداه وجود نقطة واحدة من الحكمة والوضوح والعدالة، والفضيلة أو الاستقامة، أو الحقيقة، مما يجب ان نتعلم ان ننتظرها جميعها منه، ونبحث عنها فيه، كما لو ان تلك الاشياء تنبع منه، وانه هو سببها الوحيد. وبالتالي نتعلم ان ننسب له كل شيء، وان نأخذ منه كل شيء بأفعال النعمة الإلهية. لأن ذلك الشعور بفضائل الله يشكل وحده المعلم الجيد والاختصاصي ليعلمنا التقوى التي ينبثق منها الدين.

ادعو تقوى، إجلالاً وحباً لله مجموعين معاً، واليها ننجذب مدركين الخيرات التي يمنحنا إياها اذ الى ان ينحفر في قلوب البشر انهم مدينون بكل شيء لله، وانهم يتلقون بلطف غذاءهم في ظل عنايته الابوية، وبالاختصار يعتبرونه صانع كل خير بحيث لا يبحثون عن شيء سواه، فإنهم لن يكونوا رعايا له متفانين في

سبيله تفانياً صريحاً. وفوق ذلك، اذا لم يستمدوا منه كل غبطة فإنهم لن يصلوا ابداً الى الحقيقة والصدق.

وايضاً ، الذين يكبون على بث تلك المسألة، أي معرفة ماهية الله، لا يفعلون بذلك إلا القيام بمضاربات هوجاء، فمن الأفضل والأحرى لنا معرفة من هو، وما يناسب طبيعته. اذ ماذا يجدينا نفعاً الاقرار مع الابيقوريين بوجود إله ما، قد نزع عن عاتقه مسؤولية حكم العالم، ووجد لذته في البطالة؟ وكذلك ماذا يجدينا نفعاً ان نعرف ان لا شغل لنا معه؟قبل كل شيء، المعرفة التي تتكون لدينا عنه يجب في المقام الأول ان تعلمنا مخافته، واجلاله، ثم تعلمنا وتقودنا ان نبحث فيه عن الخيرات جميعها، وان نوجه اليه الحمد عليها.

وبالتالي كيف يمكن لنا ان لا نفكر بالله ما دام فينا تفكير، ونحن صنيعته ، ونظراً الى اننا حسب الحق الطبيعي والخلق رعايا ملكوته، (امبراطوريته) واننا مدينون بحياتنا له، وأن كل ما نباشر به ونصنعه يجب ان يمت اليه؟ وما دام الامر كذلك، يحدث بعض الاحيان ان حياتنا يلحقها الفساد، اذا لم نجعلها في خدمته نظراً الى أن ذلك سبب كي تكون إرادته وحدها القانون.

ومن جهة اخرى، من المستحيل الادراك بوضوح ما هو الله، اذا لم نتعرف اليه كمنبع جميع الخيرات ومصدرها. وبالتالي فإن البشر لن يندفعوا الى ان ينتسبوا اليه وان يضعوا فيه ثقتهم، الا اذا لم يحولهم خبث نفوسهم عن الانتماء الى ما هو صالح ومستقيم، فالنفس المنتظمة جيداً لا تصطنع لها ابداً إلهاً كيف كان، بل تنظر الى الإله الحقيقي والوحيد. وبعد ذلك لا تتخيل منه ما يحلو لها، بل تكتفي ان يكون لها كما يظهر هو نفسه، وتحذر بعناية ان تخرج باندفاع مجنون وتهور خارج ما اعلنه، لترود هنا وهناك.

وبعدما تعرف النفس الله هكذا، اي تعرف انه يضبط كل شيء، تلجأ الى ظل حمايته ورعايته. وهكذا تضع نفسها تماماً تحت حمايته. ولأنها تعرفه مصدر الخيرات جميعها، فهي ما ان تشعر انها تحت عبء بلوى فاقة حتى تبادر حالاً الى الالتجاء اليه ، منتظرة منه العون. وبقدر ما تعتبره وتثق به عطوفاً وحنوناً، ، ترتاح اليه بثقة، ولا تشك ابداً في أنها ستجد الدواء جاهزاً في طبيعته ورحمته.. عندما تصاب بأية محنة من المحن، ولأنها تعتبره كسيد وكرب، فهي تستنتج ايضاً بأنه من العدل اعطاؤه المكانة العليا التي تخصه، مميزة ملكوته ،

عاملة على ان تتعـظم رفعته، مـطيعة وصـاياه. ولأنها تعترف به قاضياً عادلاً، وبأنه يتسلح بالحـزم المنصف لمعاقبة الشرور والخطايا، تقف دائمًا أمام منصة قضائه موقف من يعقله الخوف من ان يلحق بالله أي مساس، وعدا ذلك، فهي لا ترتعب من أنها خاضعة لمحاكمته، الى حد انها ترغب في الانسحاب أو التواري منه، حتى عندما تجد منفذاً ما، انما هي تفضل أن تقبل به، وتتلقى حكمه على الظالمين كأنه حسنة للمؤمنين، لأنها تعرف انه بالقدر نفسه منصف باعتباره الهاً يرد للأشرار الاجر الذي استحقوا ويهب الصالحين الحياة الابدية.

وفوق ذلك، فهي لا تمتنع عن فعل الشر بسبب الخوف من القصاص فقط، وإنما بقدر ما تحب الله وتجله، كأب وتمجده بتواضع كمعلم ورئيس، وحتى لو لم يكن هنالك جهنم فهي تخشى مع ذلك من المساس به.

ذلك هو الـدين الحقيقي والصافي: أي الايمـان مقروناً بمخافة شديدة من الله، بشكل ان المخافة تتضمن اجلالاً ارادياً، وترافقها خدمة ـ كما يريدها الله في قانونه وكما هي جديرة به ـ ونجد ضرورة للتشديد على ذلك بقدر ما يمجده الكثيرون بلا مبالاة، بينما ان القليلين

يجلونه حقاً، باعتبار ان الجميع يتظاهرون، اما الذين بقلوبهم فقليلون.

٦ ـ معرفة الله الطبيعية

لا شك في ان للناس في نفوسهم، شعوراً بالالوهية، حتى ولو كانت حركة طبيعية مجردة. فالله قد طبع في نفوس الجميع المعرفة به، كي لا يكف احد عن البحث فيه عن ملاذ له بحجة الجهل، وبواسطة هذه المعرفة يجدد الذاكرة كما لو انه يقطرها منها قطرة قطرة، ولكي ندان بالاستناد الى شهادتنا الخاصة، على اننا لم نحترم الله ابداً ولم نمنحه حياتنا بطاعتنا اياه، فإننا قد اعطينا من أولنا حتى آخرنا المعرفة في ان هنالك إلهاً خلقنا.

اذا كنا نتذرع بالجهل كي لا نعرف من هو الله، فمن المتوقع ان لا نجد مثلاً ملائماً إلا بين الشعوب الغبية البلهاء والتي لا تعرف مقدار ذرة ما هي الانسانية، ولكن في الواقع ـ كما يقول «شيشرون» الرجل الوثني: لا يوجد شعب على هذا القدر من البربرية، ولا شعب على هذا القدر من التأخر والوحشية، بحيث انهما لا يملكان هذا الاحساس المسبق، المتجذر بوجود إله ما. والذين

يبدو عليهم انهم لا يختلفون في شيء عن الحيـوانات المتوحشة، يحتفظون دائمًا مهما كان الأمر، بجذوة ما من الدين. وعلى ذلك نرى كيف ان هذا الادراك يصيب قلوب الناس حتى العمق، وهو متجذر في احشائهم.

ومنذ بدء العالم، لم توجد بلاد ، أو مدينة أو يوجد بيت، استطاعت ان تستغني عن الدين. وفي هذا نرى أن العنصر البشري قد اعترف بأن هناك شعوراً بالألوهية متجذراً في افراده وأي شيء افضل من التعبد للاصنام يعتبر دليلاً على ذلك وخاصة اذا عرفنا الصعـوبة التي يلاقيها البشر في قبول التسليم بتفوق بعض المخلوقات عليهم. فنحن نـرى في تفضيلهم عبـادة قـطعـة من الخشب، أو حجر، على ان يشتهر عنهم ان ليس لديهم إله، شعوراً فيه من القوة العجيبة والحيوية، ما لا يمكن معه إزالته من ذهن الانسان، والى درجة ان الانسان يتخلى عن كل ميـل طبيعي آخر، ولكنـه لا يستطيـع الاستغناء عن الدين. وفي الواقع ان كل كبرياء طبيعية تتحطم لدى البشر عندما يمجدون الله فيتواضعون الى درجة ينسون معها تلك النغمة الطبيعية من الكبرياء التي فطروا عليها . (المؤسسة المسيحية ١ ـ ٣ ـ ١).

ومهما كان الأمر فإن تلك النقطة محلولة لدى جميع

الـذين يحكمون ان للروح البشـرية شعـوراً بالالـوهية متجذراً تجذراً عميقاً الى درجة انه لا يمحى. حتى ان هذا الشعور المسبق متجذر طبيعياً في نفوسنا، جميعاً بمعنى ان هنالك إلهاً، وان هذا الشعور ملتصق كما يلتصق المخ بالعظام، الى درجة ان كبرياء الملحدين وتمردهم يشهدان على ذلك، فهم مهما قاوموا بشراسة للتملص من خوف الله، لا يستطيعون التغلب عليه.

في القـديم حـاول «ديـاغـوراس» (Diagoras) وبعض امثاله ان يسخروا هازئين بجميع ديانات البشر، والمدعو «دنيس» (Denis) طاغية صقلية، راح يسخر وهو ينهب المعابد كأن الله لا يرى شيئاً. غير ان ضحكاتهم لم تتجـاوز حلقهم، لأنـه يـوجـد حشـرة داخلهم تقضم ضميرهم، وهي أشد وطأة من المكواة. لا أقول، كما قال «شيشرون»، ان كل الاغلاط تتبخر مع الـزمن، ولكن أقول ان الدين ينمو ويتوطد يوماً بعد يوم، وإننا في المقابل نجد فوراً ان العالم يجهد بالقدر الذي يستطيع كي يرمي بعيداً جداً كل معرفة لله، ويضل عن خدمته في الطرق جميعها. انما أقول فقط، رغم الصلابة والعناد اللذين يجتذبهما الاشرار ويجمعونهما في قلوبهم ليستطيعوا انكار الله، فإن الشعور الذي يتملكهم عن عظمة الله،

الذي يحاولون اطفاءه، بقدر ما يستطيعون يعود فيبرز على السطح. استنتج من ذلك، انه لا يوجد نظرية تقتصر على تعلمها في المدرسة، بل ان كل انسان معلم فيها ودكتور منذ ان يولد من بطن أمه، وأن الطبيعة نفسها لا تتألم من نسيانها، رغم ان العديدين يقصرون عليها كل ابحاثهم.

ولكن اذا كان البشر جميعهم يولدون ويعيشون بهذا الشرط من معرفة الله، واذا كانت معرفة الله ولو لم تتقدم الى حيث ذكرت، باطلة وتتبخر فيبدو ان جميع الذين لا يوجهون افكارهم كلها واعمالهم نحو هذا الهدف، يتيهون ويضلون عن النهاية التي من اجلها خلقوا. مما لم يكن مجهولاً حتى من الفلاسفة، اذ هذا ما رمى اليه افلاطون عندما قال ان الخير المطلق للنفس هو ان تشابه الله، فهي بعدما تعرفه تتحول اليه. ولهذا السبب، فإن احدى الشخصيات التي يدخلها «بلوتارك» تفكر جيداً عندما تبرهن على انه اذا نزعنا الدين من حياة الناس، لا يبقى شيء يجعلهم متميزين عن المخلوقات المتوحشة، اضافة الى انهم سيكونون اشد بؤساً بكثير، ويقضون بالاسف الشديد والملل، حياة مليئة بالاضطراب والقلق، ويستنتج من ذلك، ان ما من

شيء غير الدين يجعلنا نمتاز عن الحيوانات المتوحشة، بشرط ان نستهدف بواسطته الحياة الابدية.

(المؤسسة المسيحية ١، ٣، ١ ـ ٣)

٧ ـ ضد الصدفة

رغم ان الله، يمثل لنا بوضوح كبير في مرآة اعماله، عظمته بقدر ما يمثل لنا ملكوته الخالد، فإننا نبدو متبلدين الى درجة نبقى معها متحجرين فلا نستفيد من تلك الشهادات الواضحة جداً. حتى انها تنجز بدون ان تعطي اية ثمرة. اذ بالنسبة الى تكوين هذا العالم الجميل جداً والممتاز الذي هو عالمنا، من منا عندما نرفع انظارنا نحو السماء ونديرها في الاتجاهات جميعها على الأرض، يوجه قلبه لتذكر الخالق، ولا يكتفي بالتسلي برؤية ما يرى، تاركاً الخالق؟.

لدى رؤيتنا الاشياء الحادثة كل يوم، خارج النظام والمسيرة الطبيعيين، نظن اكثرنا بل كلنا بالاجماع تقريباً، ان دولاب الحظ هو الذي يدور ويحرك الناس هنا وهناك، وباختصار ان كل شيء على الأرجح يمضي في مغامرة، دون ان يكون موجهاً من قبل القدرة الإلهية. حتى اننا في بعض الاحيان، اذا آمنا لفترة بقيادة الاشياء

وتوجيهها وان الله هو الذي يكفينا كل ضرورة، فإننا اخيراً وبعدما نشعر بشكل عابر ببعض العاطفة نحو الله، نعود الى احلامنا ونترك انفسنا ننجرف بها، مفسدين بباطلنا الخاص حقيقة الله.

ونحن نختلف في هذا الموضوع، واحدنا عن الآخر، ان كل واحد منا يجمع لنفسه بعض الاغلاط الخاصة، ولكننا كلنا متشابهون في اننا مارقون، بتمردنا على الله الواحد لنرتمي نحو عبادة الهتنا العجيبة. وهذه النقيصة لا تصيب الافكار الممتازة والسامية من الشعب فقط، بل ان الانبل والاذكى متسربلة بها ايضاً.

ارجوكم، اية حماقة، وما اثقلها من حماقة تلك التي كشف هنا عنها معشر الفلاسفة؟ اذ لو تجاوزنا اكثر الذين يهزلون فماذا نقول عن افلاطون الذي كان معتدلاً ومتديناً اكثر من الآخرين؟. فقد ثمل بصرامته جاعلاً منها فكرته الاولى! وماذا يحصل للآخرين، بسبب ان المعلمين والموجهين، الذين عليهم ان يدلوا الشعب على الطريق، قد استثمروا ذلك شديد الاستثمار؟ ومثل ذلك، عندما يتذرع نظام الأشياء البشرية في وضوح شديد بالقدرة الإلهية التي لا يمكن نكرانها. غير ان الناس لا يستفيدون من ذلك إلا اذا قيل ان الحظ يدور

بدون اساس، وان ثوراته غامضة، بقدر ما هي طبيعتنا ميالة لارتكاب الاغلاط. اتكلم دائمًا عن اكثر المتمتعين بالمعرفة والفضيلة لا عن هؤلاء الناس الوقحين الذين فاض حقدهم، واستهانوا بحقيقة الله. من ذلك خرجت تلك الحمأة اللامنتهية من الاغلاط. التي امتلأ منها العالم جميعه، وتزمّل، لأن روح كل منا مثل سرداب التيه (اللابيرنت) لدرجة لا ننذهش اذا كانت الشعوب قد اغرقتها الغفلة في مختلف التخيلات، وليس هذا فقط بل ان كل انسان صنع آلهته الخاصة.

٨ ـ الانسان يصنع آلهته

التهور والجرأة يضاف اليهما الجهل والتعقيد نكاد تجعل من الصعوبة ايجاد إنسانٍ لم يصنع له شبحاً أو صنمًا يعبده بدلاً من الله. وكما ان المياه تنبثق من نبع كبير ومتسع، فإن طابوراً لامنتهياً من الآلهة قد خرج هكذا بالتأكيد من دماغ الانسان، وكل واحد يشطح ويصاب بالجنون في تفكيره تبعاً لهذا الإله أو ذاك. لسنا بحاجة لنقوم هنا بدور، أو بتعداد الاوهام التي تسربل بها العالم، باعتبار ان ليس من نهاية لتلك الاوهام. وبدون ان اقول كلمة، يتضح جيداً من تلك التجاوزات والاحتيالات كم في روح الانسان من عمى هائل.

٩ ـ باطل الفلاسفة

سأترك الحديث عن العامي الذي هو جاف وبلا معرفة، ولكن كم هو حقير التنوع بين الفلاسفة، الذين حاولوا تجاوز السموات بعقلهم وبعلمهم، فتبعاً لما بدا ان كلا منهم يتمتع به من روح سامية عن طريق بحثه فقد اصبح احسن صقلاً ، وحاز على شهرة تزويق الكلام، ورواية الامثال.

ولكن اذا تفحصناهم من قرب، وجدنا ان كل شيء لديهم عبارة عن مجرد صبغة تزول. فقد ظن الرواقيون انهم وجدوا لب الحلوى كما يقولون، بزعمهم اننا من مختلف اقسام الطبيعة، نستطيع ان نستخرج مختلف اسماء الله، بدون ان نمزق الجوهر أو نقسمه ، كما لو أننا لم نكن ميالين جداً نحو الباطل، ولولا انه لم يوضع أمام اعيننا، مجتمع خليط من الالهة، ليحملنا الى خطأ ابعد واكثر تهوراً.

لاهوت المصريين الذي سموه سرياً، يظهر ان الجميع قد بذلوا جهداً وعناية الى درجة ظن معها انهم لم يكونوا حمقى بدون أي سبب ومن الممكن انهم فيما زعم البسطاء، وغير المطلعين، كانوا مخدوعين بالدرجة

الاولى طالما لا يوجد هناك رجل اخترع شيئاً إلا ليفسد بحقارة، الدين ويحرفه. حتى هذه التشكيلة الغامضة جداً قد زادت من جرأة الابيقوريين والملحدين الدنيويين الساخرين من الدين، على التخلي عن كل شعور بالله. فهم عندما رأوا اكثر الحكماء والعقلاء يتخبطون، وتعصب اعينهم الآراء المتضاربة، لم يجدوا صعوبة رغم خلافاتهم بالرأي، ورغم النظرية الهوجاء والباطلة لكل منهم في ان يقروا ويستنتجوا ان الناس يبحثون بدون هدف ويجنون عن كثير من العذابات بافتراضهم إلهاً ليس موجوداً. لقد ظنوا ان ذلك مباح لهم اذ من الافضل هكذا ببساطة انكار الله من افتراض آلهة غير اكيدة، ومن ثم الدخول في مناقشات لا نهاية لها، صحيح ان مثل هؤلاء الناس يتعللون بشكل فظ جداً، أو يستغلون جهل البشر، كغطاء لاخفاء الحادهم، نظراً لأنه لا يعود الينا خرق شيء نسبة الى الله، رغم اننا نتحدث عن ذلك بسفاهة. ولكن بما ان الوثنيين قد اقتنعوا انه لا يوجد شيء قد اختلف فيه العلماء والبلهاء (الجهلة) بهذا القدر من الخلاف، ينتج من هذا الاقتناع ان ادراك الانسان اكثر من مختبل، واعمى تجاه اسرار الله، نظراً الى اننا جميعاً نتجاوز الحد فيها، ونقابلها

بشكل سيىء.

البعض يمتدحون جواب شاعر وثني اسمه «سيمونيد» (Symonide) وقد سأله الملك «هييرون» عن الله، فطلب فرصة يوم ليفكر، وفي اليوم التالي عندما حان الموعد طالب بمضاعفة المهلة، وهكذا استمر يمددها بضع مرات، واخيراً اجاب انه كلما امعن في التفكير كلما وجد الامر يزداد غموضاً. اذن لنأخذ مثل الجاحد المسكين الذي يعلق عن قصد حكمه على شيء مجهول منه، فيتضح من هنا انه اذا كان الناس يتعلمون فقط من الطبيعة، فلن يكون بالنسبة اليهم شيء اكيداً، وحاسمًا أو سلساً (واضحاً)، بل سيكونون فقط مرتبطين بهذا المبدأ الغامض: اي عبادة إله ما مجهول..

١٠ - ما من كشف طبيعي للـه

هوذا كيف يلقي الضوء هذا العدد الكبير من المصابيح المشتعلة في بناء العالم كي يمكننا عبثاً من رؤية مجد الله، فهي تحيط بنا بأشعتها ولكنها لا تستطيع قيادتنا حتى الصراط المستقيم. صحيح انها تخرج بعض الشرارات، ولكن كل شيء يختنق قبل ان يخرج الى نور البقاء. ولهذا السبب فإن الرسول بعد ما قال ان العالم

مثل تمثال أو مشهد من الاشياء التي لا تنقسم زاد فوراً ان الايمان هو الذي يجعلنا نعرف انه هكذا تركب جيداً وتخصص بفعل كلمة الله. (عبرانيون ٢ - ٣) عانياً بهذه الكلمات انه رغم ان عظمة الله الخفية، تظهر عن طريق تلك المرايا، فإننا لا نملك العينين لتأملها، الى ان تنار بالكشف السري الممنوح لنا من الاعلى. . . اذن رغم ان الله لا يجرد نفسه من الشهود، وهو يدعو بحسناته وبلطف، الناس الى معرفته، فإنهم لا يتورعون في سبيل ذلك من اتباع طرقهم الخاصة، اي اغلاطهم المميتة.

١١ - الكتب المقدسة ، هادية ومعلمة

اذن، رغم ان الوضوح الذي يظهر للناس في الاعلى وفي الاسفل، في السماء وعلى الأرض، يكفي ويزيد، لينزع كل مقاومة من عقوقهم، فإنهم بحاجة الى تدخل دواء آخر وافضل ليتمكنوا من الوصول جيداً جداً وحتماً الى الله ولهذا السبب فليس من العبث انه اضاف وضوح كلمته ليعرف نفسه كمخلص، رغم ان ذلك امتياز منحه للذين شاء استقبالهم عن كثب منه، وبأكثر حميمية.

لأنه بقدر ما يعرف ان المدارك البشرية قد اثيرت

وتبلبلت هنا وهناك بكثير من الخفات الخاطئة بدون توقف بعدما اختار اليهود كقطيعه الخاص، وحبسهم كما في معسكر، حتى لا يسحق بعضهم بعضاً كما فعل الآخرون فهو اليوم، لا بدون سبب، يريد بالدواء نفسه ان يحتفظ بنا مجاورين للمعرفة الصافية لعظمته اذ بدون ذلك، لا يلبث الذين يبدون الأكثر صموداً ان ينهاروا.

انهم مثل الناس الكبار في السن، أو ذوي العيون الدامعةأو ضعفاء النظر الذين يقدم لهم كتاب جميل مكتوب بحروف جيدة الصنع، فهم رغم انهم يرون الخط، يستطيعون بالجهد قراءة كلمتين أو ثلاث متتالية، بدون نظارتين ولكن ما ان يضعوهما حتى تساعدهم على القراءة بوضوح، هكذا الكتب المقدسة، بتجميعها في ادمغتنا معرفة الله، التي لولا ذلك لبقيت غامضة ومشتتة، تلغي الظلمة لتدلنا بوضوح على الله الحقيقي. ولهذا السبب نعتبر منحة فريدة عدم اكتفاء الله، كي يعلم كنيسته، بهؤلاء المعلمين الخرس، الذين تحدثنا عنهم. اعني اعماله التي يقوم بها من اجلنا، ولكن يتفضل ايضاً فيفتح فمه المقدس، لا فقط من اجل بث المعرفة والاعلان ان علينا ان نعبد إلهاً ما، ولكن ايضاً ان

هذا الاله هو هذا، ولا يكتفي بتعليم الذين اختارهم ان ينظروا الله، بل يقدم نفسه ايضاً في الوقت نفسه، كي ينظروا اليه.

(المؤسسة المسيحية ١ ـ ١٥ ١١ ـ ١٣)

١٢ ـ تحديد النفس

سيكون من الجنون محاولة ان نتعلم من الفلاسفة تحديداً ما للنفس، نظراً لأن لا احد منهم، عدا افلاطون قد اكد باستقامة ، جوهرها الذي لا يموت. وسائر مؤيدي سقراط يتحدثون عن ذلك جيداً ولكن بشكل معلق، لأن لا أحد منهم تجرأ على البت في امر لم يكن مقتنعاً به. فأفلاطون في نظريته كان أفضل من الآخرين، وخاصة انه اعتبر ان صورة الله في النفس. اما البدع الأخرى فتربط فضائل النفس وقدراتها جميعها بالحياة الراهنة ولا تترك أى شيء تقريباً خارج الجسد.

في الواقع، ان النفس ماهية لا جسد لها. ورغم انها لا يمكن ان تحتوى بمكان، فهي رغم ذلك موضوعة وساكنة في الجسد، تقيم فيه كمسكن لها، لا فقط من اجل ان تعطي قوة للاعضاء وتجعل اجهزة الجسد الخارجية مختصة ومفيدة للاعمال المكلفة القيام بها، بل

ايضاً من اجل ان يكون لها الافضلية في توجيه حياة الانسان والتحكم بها لا فقط في سبيل المداولات والاعمال التي تتعلق بالحياة الارضية، بل ايضاً في سبيل ايقاظ الانسان، وتوجهه نحو مخافة الله.

ورغم ان هذا الهدف الاخير لا يشاهد بوضوح نتيجة لفساد طبيعتنا، فإن بعض اثاره لا تزال مطبوعة بين النقائص. اذ من أين يأتي ان البشر يعتنون عناية كبيرة بسمعتهم. او الشعور بالعار الذي يحاولون ابعاده عنهم؟ من أين يأتي هذا الشعور بالعار، لو لم يكونوا مضطرين لمعرفة ما هي النزاهة؟ مصدر ذلك وسببه انهم يسمعون بأنهم ولدوا لكي يعيشوا باستقامة وفي هذا تكمن بذرة من بذور الدين. وفوق ذلك، فإن الانسان خلق بدون شك، ليطمح الى الحياة السماوية. وايضاً من الاكيد ان طعم هذه الحياة وتفهمها قد انطبعا في نفسه، وفي الواقع سيكون الانسان محروماً ومجرداً من الثمرة الرئيسة لذكائه اذا كان جاهلاً سعادته التي تجد كمالها في الانضمام الى الله. وهكذا فإن اهم شيء أمام النفس، التوق الى هذا الهدف. وكلما تاق الانسان اليه واقترب منه كلما برهن على انه متمتع بالعقل.

المؤسسة المسيحية ١ ـ ١٥ ـ ٦

١٣ ـ الاختيار الحر عند آدم

زود الله اذن النفس بالذكاء، وبه تستطيع ان تميز بين الخير والشر، وبين ما هو صحيح وغير صحيح، وايضاً ما يجب ان تتبع وما يجب ان تهرب منه ، باعتبار ان وضوح العقل يقودها. ولهذا السبب فإن هذا الجزء الذي يوجه، قد دعي من قبل الفلاسفة: الحاكم (To egemonikon) وفي الوقت نفسه اضاف الله اليه الارادة، ومعها الاختيار (القدرة على الانتقاء). وتلك هي الخصائص التي زينت بها حياة الانسان الاولى وتمجدت، ذلك انه تمتع بمحرك (العقل)، وبتبصر، وتقدير، ورزانة، لا بالنسبة لنظام الحياة الأرضية فقط، بل ايضاً من اجل ان يتوصل الى الله والى السعادة الكاملة. ثم انه تمتع باختيار مزدوج قاد القابليات فيه جاعلاً ايضاً الحركات جميعها التي يسمونها عضوية معتدلة، كما ان الارادة غدت متفقة اتفاقاً كاملاً مع قواعد العقل واندفاعه.

في هذا الكمال، كان للانسان حرية الاختيار، وبه كان نال لو أراد الحياة الابدية... كان آدم استطاع أن يبقى واقفاً لو أراد، باعتبار أن تعثره كان ناتجاً عن ارادته

الخاصة، ولكن بما أن ارادته كانت ميالة للخير وللشر، وبما ان الثبات على الموقف لم يعط له، لهذا السبب سقط باكراً وبسهولة. ومع ذلك كان له مجال الاختيار بين الخير والشر. وليس ذلك فقط، فقد كان له أيضاً من ذكائه كما من ارادته قدر كافٍ من الاستقامة الكاملة، حتى ان جميع اجزائه العضوية كانت ميالة ومستعدة لأن يخضع كل منها للخير، الى ان ضل ودمر نفسه، فأفسد كل خير فيه.

الفلاسفة قد انبهروا واحيطوا بالظلمات بسبب هذا: ذلك انهم حاولوا البحث عن بناء جميل وكامل في الانقاض، وعن ارتباطات وثيقة في الشتات. وقد ساندوا هذا المبدأ القائل أن الانسان لن يكون حيواناً عاقلاً اذا لم يكن له الخيار بين الخير والشر. كما طرأ على فكرهم ايضاً، عدم وجود أي تفريق بين الفضائل اذا كان الانسان لا يسير حياته كما يريد ويفكر. ولم يكن ذلك سيئاً عندهم لو لم يحدث أي تغيير في الانسان. اذ ان سقوط آدم قد خفي عنهم مع الغموض الذي حدث بسببه. فلا تأخذنا الدهشة اذا خلطوا بين السماء والأرض. غير ان الذين يدعون انهم مسيحيون، ومع ذلك يسبحون بين مائين ويوشون حقيقة الله بما حدده

الفلاسفة بحيث انهم لا يزالون يبحثون عن حرية الاختيار في الانسان الضائع والهاوي الى الموت الروحي. ان هؤلاء ، أقول، اغبياء تماماً ولا يمسون الأرض ولا السماء.

علينا فقط ان نذكر، ان آدم كان عند خلقه الأول قماشة اخرى تختلف عن قماشته التالية كلها التي هي فاسدة وضالة وتحمل عدوى موروثة. ذلك ان اجزاء نفسه جميعها كانت مهيأة لتنظم جيداً، وكان الادراك سليمًا وكاملاً، وكانت الارادة حرة في اختيار الخير. فاذا اعترض احدهم حول هذا الموضوع بأنها كانت كأنها في مكان مزحلق، لأن كان لها طاقة ومقدرة حمقاء (بدون قوة) ، لأجبت انه لكي ينتزع كل عذر، يكفي ان الله وضعها على هذا المستوى الذي ذكرنا. لأنه اذا كان الله اضطر الى خلق الانسان على هذا الشكل فذلك ليس سبباً كافياً لكي لا يقدر هذا الانسان أو لا يريد أبداً إلا ارتكاب الخطيئة. صحيح ان الطبيعة كانت ستكون في هذا الصدد أفضل وممتازة اكثر. غير ان الترافع ضد الله، وانتقاده، كما لو انه كان ملزماً على اعطاء الانسان هذه الفضيلة، شيء بعيد عن العقل، نظراً لأنه كان يستطيع ان يمنحه القليل جداً كما يحلو له. اما بشأن عدم

مساندة الله له في فضيلة الثبات، فإن ذلك مخبأ في رأيه الضيق وواجبنا ان لا نعرف شيئاً إلا باعتدال. وهكذا فإن آدم لم يكن معذوراً، ما دام قد تلقى الفضيلة ولكنه بارادته أفسدها وجلب لنفسه الشر والغموص. ولم تفرض عليه اية حتمية من قبل الله، الذي كان منحه سابقاً ارادة متوسطة تتأثر بالخير والشر. ثم ان الله لم يستغل السقوط لمجده رغم كون هذا السقوط متداعياً.

(المؤسسة المسيحية ١ ـ ١٥ ـ ٨)

١٤ ـ اللـه، الحاكم الدائم للعالم

ان في افتراض إله خالق، وقتي، ولمدة قصيرة، يتم عمله دفعة واحدة شيئاً بارداً وهزيلاً. ويجب في هذا الأمـر رئيسياً، ان نختلف عن الـوثنيين وجميـع الناس الفانين، فتضيء فضيلة الله لنا كأنها حاضرة، سواء في حالة العالم الدائمة أو في أصله الأول. لأن للأيمان رغم اضطراب فكر الجاحدين نتيجة للضغط الذي يتلقاه من تـوق السماء والأرض الى الارتفاع الى الخالق، نـظرته الخاصة ليقدم لله الشكر الكـامل عـلى انه خلق كـل شيء، (الرسالة الى العبرانيين ١١ ـ ١٣). الام يهدف ما ذكرناه عن الرسول من اننا عن طريق الايمان نفهم

ان العالم قد بني احسن بنيان من قبل كلمة الله؟ لأننا اذا لم نتوصل حتى العزة الإلهية، التي بها يستمر في المحافظة على كل شيء، لا ندرك جيداً ماذا تعني هذه العبارة: ان الله خالق ، رغم انه يبدو اننا طبعناها في دماغنا، واعترفنا بها في فمنا.

المعنى البشري الذي افترض فضيلة الله لمرة واحدة في الخلق يتوقف هنا. وابعد ما يستطيع التقدم اليه هو تأمل العامل الذي يظهر للعين في هذا البناء الكبير والنبيل، وتسجيل حكمته ومقدرته وطيبته. حتى ولو لم يهتم لمشاهدتها (هذا اذا كان يصر على مشاهدتها). ثم بعد ذلك، يتصور عملية عامة من الله، هدفها المحافظة على الجميع وقيادة الجميع، وبهذه العملية يتعلق كل نشاط وكّل حركة ، وباختصار، يقدر ان الله منذ البداية هو الذي نشر من النشاط في كل مكان ما يكفي للمحافظة على الاشياء في حالتها.

على الايمان ان يتجاوز ذلك، فيعترف بأن الذي أقر به الخالق هو الحاكم والحارس الدائم، لا فقط بالنسبة الى قيادة حركة العالم وجميع اقسامها بحركة كونية، بل ايضاً بمساندة كل خليقة وتغذيتها والعناية بها، حتى العصافير الصغيرة.

(المؤسسة المسيحية ١ - ١٦ - ١)

١٥ ـ لا صدفة

رغم ان الفلاسفة متفقون على هذه الحكمة من القديس بولس؛ من اننا بالله نحيا ونتحرك ونوجد (اعمال ١٧ ـ ٢٨): فهم ابعد من ان يكونوا متأثرين تأثيراً عميقاً بنعمة الله. كما يبشر بها القديس بولس. وهي ان الله يعتني بنا عناية خاصة، ويعلن رحمته الابوية التي لا يستطيع الاحساس الجسدي تذوقها. ولكي نوضح اكثر هذه الفكرة، نجد من الضروري الاشارة الى ان قدرة الله تتعارض مع الحظ ومع سائر الصدف. وهذه الفكرة قد استقبلت بترحاب في مختلف العصور تقريباً، وهي اليوم في الطليعة ومستولية على جميع العقول المهتمة، اي ان الاشياء جميعها تصبح صدفاً مما يحمل على الظن والقناعة ان القدرة الالهية متسربلة، بالظلمات تقريباً.

اذا وقع احدهم في ايدي الاشقياء، أو التقى بالحبوانات المتوحشة، او سقط في البحر بفعل العاصفة، او اذا اصيب بخراب بيته، او انهيار شجرة او اذا كان تائهاً في الصحارى ووجد شيئاً يسد به رمقه، واذا رمت به امواج البحر الى الشاطىء. واذا تخلص من الموت ولم يكن بينهما سوى قيد انملة، فإن لعقل الجسدي ينسب

الى الحظ تلك الصدف جميعها سواء الحسنة منها أو السيئة. غير ان كل الذين تعلموا من فم المسيح ان شعور رؤوسنا محصاة (متى ١٠ - ٣٠) يبحثون عن السبب في ابعد من ذلك ويؤكدون واثقين بأن الاحداث مهما كانت، محكومة بحكمة الله السرية.

اما الاشياء التي لا نفس لها، فيجب ان نحفظ عنها هذا الرأي النهائي، وهو: رغم ان الله قد خص كلا منها بخاصة معينة وهي لا تستطيع ان تبدل في تأثيرها، ولا سيما انها موجهة بيد الله. وهكذا فهي ليست سوى ادوات يجري فيها الله بدون انقطاع وبدون نهاية ما يحلو له. ويطبقها حسب ما يرغب، ويديرها في الاعمال التي يريد.

(المؤسسة المسيحية ١ - ١٦ - ١٢)

وبالتالي فإن السيد ينسب لنفسه القدرة الكلية، ويريد منا ان نعترف بوجودها فيه، لا كما يتصورها الصوفيون باطلة. متعطلة ونائمة تقريباً، بل دائماً مستيقظة، مفعمة بالحزم، والحركة. لا كما هي بشكل عام وغامض مبدأ حركة المخلوقات (كما لو ان احدهم انشأ قناة، وصحح سيل الماء فيها. ثم تركه يسيل بعد

ذلك بذاته) بل انه يحكم ويقود بدون انقطاع، جميع الحركات الخاصة... لأن الاعتراف بالقدرة الكلية لله، لا يعني بأنه يستطيع القيام بجميع الأشياء، ويرتاح، مع ذلك، أو بإلهام عام يستمر في نظام الطبيعة كما صممه منذ البداية بل يعني انه، بحكمه العالم والأرض بقدرته، يجعل الاشياء جميعها بحيث لا يحدث أي شيء إلا برأيه (المزمور ١١٥ - ٣).

لأنه عندها قيل في هذا المزمور انه يعمل كل ما يريد، فإن ذلك يعني الاشارة الى ارادة اكيدة وحرة الاختيار. ولذلك يكون من النافل عرض اقوال النبي تبعاً لنظرية الفلاسفة، بمعنى ان الله هو المحرك الأول، لأنه المبدأ والسبب لكل حركة.. بدلاً من ان يكون عزاء حقيقياً، منه يستمد المؤمنون تخفيف المهم في المخاصمات باعتبار انهم لا يتألمون إلا بسبب وصية الله وامره، وخاصة انهم تحت سلطانه. واذا كانت سلطة الله تمتد هكذا على جميع اعماله، فيكون من السخافة محاولة حصر مسير الطبيعة وتأثيرها في الداخل.

من الاكيد ان جميع الذين يحصرون في حدود ضيقة كهذه، العزة الإلهية كما لو انها تترك المخلوقات تسير بحرية تبعاً لسيرها العادي الطبيعي، يجردون الله

من مجده، ويحرمون انفسهم من نظرية كان يمكن ان تكون مفيدة لهم جداً، باعتبار انه لن يكون اشقى من الانسان، اذا كانت حركات السماء، والهواء، والأرض، والمياه تتمتع بحريتها التامة ضده. ان اتخاذ مثل هذه النظرية يعني الانتقاص من الطيبة الفريدة لله نحو كل واحد.

اما الذين يوجهون باستقامة لله المديح على قدرته الكلية ينالون من ذلك ثمرة مزدوجة. أولاً ان له القدرة الكافية ليعمل الخير، باعتبار ان الأرض والسماء تحت سلطته وسيادته وان جميع المخلوقات متعلقة بارادته، لتتكيف في طاعته، وثانياً لأننا نجد الراحة في حمايته، لأن الاشياء جميعها التي يمكن ان تلحق الضرر من أية وجهة كانت، خاضعة لارادته باعتبار ان الشيطان بكل غضبه ووسائله، خاضع لارادته كأنها زمام يمسكه. وباعتبار ان ما يناقض خلاصنا خاضع لحكمه، ويجب ان لا يجري التفكير بأن هنالك وسيلة اخرى لمعالجة التأثيرات أو المخاوف المتطرفة أو الخرافية التي نتخيلها بسهولة عندما نتعرض للاخطار، أو عندما نوجس منها خيفة. اقول اننا نكون خائفين بشكل خرافي، اذا خشينا المخلوقات عندما تهددنا أو تلحق بنا بعض المخاوف كما

لو كانت ذات قدرة على الضرر بنفسها، أو كما لو لحقنا ضرر عن طريق الصدفة، او كما لو ان الله ليس كافياً لمساعدتنا على مجابهتها.

وكما يحظر النبي مثلاً على اولاد الله، الارتعاب من النجوم وآيات السماء، كما يفعل الجاحدون (ارميا ١٠ - ٢)، فمن الأكيد انه لا يدين كل خوف، ولكن حسب ما ينقل الجاحدون سلطة الله الى النجوم. ويصورون ان سعادتهم جميعها أو شقاءهم متعلقان بها، لا بإرادة الله، وهكذا بدلاً من مخافة الله، يخشون النجوم، والكواكب، والاقمار. وهكذا على من يريد تجنب هذا الجمود، ان يتذكر دائماً ان القدرة، او العمل، او الحركة التي للمخلوقات ليست شيئاً يسير ويحلق حسب رغبتها، بل ان الله برأيه السري يحكمها، بشكل ان لا شيء يحدث إلا إذا عينه هو بمعرفته وارادته[1].

ولهذا السبب يجب ان نجد حلاً لهذا قبل كل شيء، فعندما نتكلم عن العناية الإلهية، فإن هذه

---

(١) كتب كالفين عن هذا الموضوع كتاباً كاملاً: تحذير من التنجيم الذي يسمونه قضائياً (الكراريس ص ١١١٨- ١١٣٧): قضائياً تعني هنا. ما يزعم انه يحكم على الاشياء المستقبلة.

الكلمة لا تعني ان الله متعطل في السماء، ومضارب في ما يعمل على الأرض، بل انه على الأرجح مثل ربان المركب الذي يمسك بالدفة ليوجه الاحداث.

(المؤسسة المسيحية ١١ - ١٥ - ٣)

١٦ - العناية الإلهية وقدر الرواقيين

الذين يريدون ان يجعلوا هذه النظرية محتقرة ينمّون قائلين ان غرابة الرواقيين هي التي تجعل كل الاشياء تحدث بالضرورة. وهذا بالذات ما اتهم به ايضاً القديس «اوغستين». اما نحن فرغم اننا لا نجادل كثيراً حول الكلام، فإننا لا نقبل هذا النص الذي يلجأ اليه الرواقيون عن القدرية، لأنه من النصوص التي ينصح القديس بولس بالاعراض عن بطلانها الزائل (الرسالة الاولى الى تيموثاوس ٦ - ٢٠) ولأن اعداءنا يحاولون عن طريق بغض الاسم، المساس بحقيقة الله.

اما النظرية، فإنهم ينسبونها الينا خطأ وعن سوء قصد، فنحن لم نتخيل ابداً حتمية تكون موجودة طبيعياً بمصادفة دائمة في الاشياء جميعها، كما كان يفعل الرواقيون. لكننا نجعل الله سيداً ومعدلاً للاشياء

جميعها، التي نقول انه حدد منذ البدء بحكمته ما يجب ان يصنعه والآن ينفذ بقدرته كل ما تدارسه. ومن هنا نستنتج ان السماء والأرض والمخلوقات غير المحسوسة ليست وحدها محكومة من العناية الإلهية، بل ايضاً آراء البشر وارادتهم، بحيث انه يوجهها نحو الهدف الذي افترضه لها.

ماذا اذن؟ يقول احدهم، ألا يحدث شيء بالصدفة أو على سبيل المغامرة؟ أجيب ان ذلك قيل جيداً من قبل «باسيل» الكبير، عندما كتب ان الحظ والمقامرة من كلمات الوثنيين، التي يجب ان لا يدخل معناها الى قلوب المؤمنين، اذ لو كان كل خير من رضى الله، وكل محنة من لعنته، لم يبق من مكان للحظ في كل ما يحدث للبشر.

(المؤسسة المسيحية ١ ـ ١٦ ـ ٨)

١٧ ـ الصبر في المحنة

عندما يلحق بنا احد من البشر ظلمًا علينا أن لا ننظر الى تعمده الاذى، اذ بذاك يزيد غضبنا حدة، ويؤجج ميولنا نحو الانتقام. لنتذكر ان علينا أن نسمو الى الله، ولنتأكد انه بقراره العادل وبحصافة رأيه يسمح

لأعدائنا بجميع ما يوجهونه ضدنا: بل يأمر به. القديس بولس الراغب في كبت ميولنا الى الانتقام، يلومنا برفق بأن علينا أن لا نصارع ضد اللحم بل يجب أن نصارع ضد الشيطان، عدونا الروحي، كي نكون متهيئين ضده. (رسالته الى اهالي افسس ٦ - ١١٢). غير ان ذلك اللوم يقصد منه فوق ذلك تخفيف كل طيش واهواء الغضب: تلك التي يسلح الله بها الشيطان والكافرين، ويترأس في الوسط مثل سيد الحلبة يمتحن صبرنا.

١٨ - وهن الحياة

الحياة البشرية، محاطة، ومحاصرة تقريباً بمحن لا نهاية لها. وبدون ان نذهب الى ابعد، فإن جسدنا وعاء لألف مرض، ويغذي فيه أسبابها، وحيث يذهب الانسان يحمل عدّة انواع من الموت معه، الى درجة انه يجرجر حياته المحاطة تقريباً بالموت. اذ هل يمكننا أن نقول شيئاً آخر اذا كنا لا نتحمل البرد، أو لا نعرق دون ان نواجه الخطر؟ وفوق ذلك، الى اية جهة التفتنا، فإن كل ما يحيط بنا ليس فقط مشبوهاً، بل هو يهددنا بشكل مفتوح كما لو انه يريد ان يحمل لنا الموت. لنصعد الى

مركب، فلا نجد سوى مسافة قدم بين الموت وبيننا. لنمتط ظهر حصان، فليس له إلا ان يجمح بنا قدماً واحدةً ليكسر لنا رقبتنا. لنجتز الشوارع، فمهما كان على السطوح من قرميد، كان هناك اخطار تهددنا. لنمسك حساماً أو يمسكه احد قريباً منا، فليس هنالك إلا قليل ليجرحنا، وبقدر ما نرى من حيوانات أو متوحشين أو ثائرين أو عاصين يكونون كلهم متسلحين ضدنا. لنحبس انفسنا في بستان جميل، حيث لا يوجد إلا الفرح، فيمكن ان تكون حية مختبئة فيه. المنازل التي نسكن، كم هي معرضة للاحتراق، وفيها نحن مهددون بالفقر نهاراً وبالأخطار ليلاً. ومهما كان لدينا من املاك، فإن تعرضها للبرد، والجليد والجفاف، والعواصف الاخرى، يهددنا بالقحط وبالتالي بالمجاعة. كي لا اذكر هنا السموم، والحبائل واعمال العنف، التي تهدد حياة الانسان تارة في المنزل، واخرى في الحقل، خلال مثل هذه الاخطار المحيرة ألا يجب ان يكون الانسان اكثر من بائس؟ وخاصة انه يشعر وهو في الحياة انه شبه عائش، ويحس بالضيق والانحطاط، كما لو ان السكين موضوعة فوق رقبته في كل وقت.

(المؤسسة المسيحية ١ ـ ١٧ ـ ١٠)

ثالثاً ـ معرفة الانسان

١٩ ـ معرفة الذات

لم يكن بدون سبب أن المثل القديم طالما نصح للانسان بأن يعرف نفسه. لأننا اذا قدرنا انه من العار جهل الاشياء التي تتعلق بالحياة الانسانية، فيكون اكثر عاراً جهلنا انفسنا. فنتيجة هذا الجهل يتأتى اننا في آرائنا عن الاشياء الضرورية نتخبط في بؤس الرأي حتى اننا نخبط خبط عشـواء. ولكن بقدر مـا هي مفيدة تلك التوصية يجب علينا ان نحترس من عدم ادراكها جيداً، كما حصل لبعض الفلاسفة. فهم عندما يوصون الانسان بمعرفة نفسه، انما يقودونه في الوقت نفسه الى هـدف الاعتداد بمكانته السامية، ولا يتركونه يتأمل إلا ما يدفع

بـه نحو الثقـة الباطلة كـما لا يدعـونـه إلا متسـربـلاً بالكبرياء.

اذ ان معرفة انفسنا ملقاة **أولاً**، وواقعة لكي تؤكد لنا ما اعطي لنا بالتكوين، وكم ان الله يظهر متحرراً في إكمال ارادته الطيبة نحونا، وكي نعرف من وراء ذلك كم تكون طبيعتنا ممتازة، لو انها بقيت لنا كاملة، وايضاً ان نفكر جيداً ان ليس لنا شيء خاص، بل ان كل ما افسح الله لنا به مدينون به لعطفه ، كي نبقى دائماً متعلقين به. والشيء **الثاني** هو ان حياتنا البائسة التي ورثناها عن سقوط آدم، انما تأتي دائماً أمام اعيننا، وأن الشعور بهذا البؤس يخنق فينا كل مجد ويثقلنا بالعار ويذلنا. وباعتبار ان الله منذ البدء قد خلقنا على صورته (تكوين ١، ٢٧)، لكي يقوم عقولنا بالفضيلة والخير ويؤهلنا لتأمل الحياة السماوية، فإنه من السهل لنا أن نعرف أننا نتمتع بموهبة العقل والذكاء كي نتطلع الى الهدف الذي وضعه لنا من السعادة الابدية المعدة لنا من السماء، وحتى لا يـزول النبل الذي ربانا الله فيه نتيجة لعدم ثباتنا وشراسة اخلاقنا. وعدا ذلك فإن تلك الكرامة الاولى لا تحصل لنا قبل أن نجد أنفسنا بالمقابل مضطرين الى مشاهدة تشويهنا، وخزينا، وخاصة اننا قد

سقطنا من طبيعتنا الاصلية بشخص آدم. ومن هنا يتأتى الحقد على النفس وعدم الرضى عنها، والشعور ايضاً بميل جديد وحار نحو البحث عن الله، لنعوض فيه جميع الحسنات التي رأينا انفسنا فارغين ومحرومين منها.

المؤسسة المسيحية (٢ - ١ - ١)

٢٠ - الخطيئة الأصلية

بما ان الحياة الروحية لآدم كانت معدة لأن يكون ويبقى متحداً مع خالقه، فإن موت نفسه كان في ان ينفصل عنه، ويجب ان لا ندهش اذا كان دمر كل كيانه بعصيانه، اذ افسد نظام الطبيعة في السماء وعلى الأرض.

وبما أن لعنة الله قد انتشرت فوق ،وتحت، وانتشرت في امكنة الكون جميعها بسبب خطيئة آدم، فليس اذن عجيباً انها انسحبت على كل ذريته. ولهذا السبب، فبقدر ما زالت الصورة السماوية عنه، لم يتحمل وحده القصاص، الذي به بدلاً من ان يكون متمتعاً بالحكمة، والفضيلة، والحقيقة، والقداسة، والعدالة،اعطي هذه الأمراض المكروهة مثل الطاعون، والعجز عن الخير، والدناسة، والعجرفة، والظلم،ولكن ذريته كلها ايضاً قد احيطت واغرقت في مثل تلك

الآثام، وذلك الفساد الوراثي هو الذي سماه القدماء: الخطيئة الأصلية، وهم يعنون بكلمة خطيئة: فساد الطبيعة التي كانت صالحة وصافية قبل ذلك.

نقول اذن، الخطيئة الأصلية هي فساد، ضلال وراثي لطبيعتنا، وهي بانتشارها على جميع اجزاء النفس، تجعلنا مذنبين أولاً بسبب غضب الله، ثم بسبب حصول الأعمال التي يسميها الكتاب المقدس اعمال الجسد، في نفوسنا.

وذلك الضلال ليس أبداً مستكيناً فينا، بل هو يخلق باستمرار ثمرات جديدة، هي تلك الاعمال الجسدية التي سبق لنا ان وصفناها، كبوتقة مشتعلة ترمي بدون انقطاع،اللهيب والشرر، وكنبع يتدفق دائمًا ماؤه. ولذلك فإن الذين حددوا الخطيئة الأصلية بأنها خطأ من العدالة الاصلية التي كان يجب ان تكون في الانسان، ادركوا ماهيتها وكلينها، ولكنهم لم يعبروا كفاية عن قوتها، اذ ان طبيعتها ليست فقط فارغه ومحرومة من كل حسنة، بل هي خصبة في انتاج كل نوع من انواع الشر الى درجة انها لا تستطيع ان تبقى عاطلة ومستكينة.

اما الذين دعوها: شهوة، فإنهم لم يستعملوا كلمة

حقيرة تليق بها إلا اذا اضافوا، وهذا لم يفعله جميعهم، ان اجزاء الانسان جميعها من الادراك الى الارادة، ومن النفس حتى الجسد، قد تلطخت بها جميعها وكلياً، أو قالوا حتى يختصروا بأن الانسان ليس شيئاً آخر في نفسه، سوى شهوة.

(المؤسسة المسيحية ٢ ، ١ ، ٥ ، ٨)

٢١ ـ الاختيار الحر

بما أننا رأينا ان طغيان الخطيئة، منذ ان استرقت الانسان الاول، لم يكتف بأن يفعل في البشر جميعاً، بل هو يحتوي كلياً نفوسهم، بقي علينا الآن، ان نرى ما اذا كنا قد جردنا من كل حرية وصراحة منذ ان حلت فينا تلك العبودية، أو أننا لا نزال نملك حصة منها، والى اين تصل.

ولكن حتى تتوضح لنا حقيقة تلك المسألة ، علينا أولاً أن نضع نصب اعيننا هدفاً تحول اليه كل خلافاتنا، ونجد ان الوسيلة التي تحفظنا من الضياع تكون في اعتبار الاخطار التي تحصل من هنا وهناك. اذ عندما يكون الانسان خالياً من كل خير، يغتنم من ذلك فرصة مفاجئة للامبالاة، ولأنهم يقولون له انه لا يملك بنفسه

أية فضيلة لعمل الخير، فهو لا يهتم بعمل الخير، كما لو ان الخير لا يخصه في شيء.

ومن جهة اخرى، لا يمكن ان يتاح له اطلاقاً ان يرتفع بثقة باطلة وبجسارة، وايضاً ان يسلب من الله المقدار نفسه من مجده. فلكي لا نسقط اذن في مثل هذه الاحداث، علينا أن نحافظ على هذا الاعتدال من أن الانسان، وقد تعلم ان ليس فيه أي خير، وانه محاط بالشقاء والضرورة، يدرك كيف عليه أن يطمح الى الخير الخالي منه، والى الحرية المحروم منها، وان يكون اكثر تأثراً واندفاعاً لعمله مما لو انهم صوروه له اكبر فضيلة في العالم.

لا أحد لا يرى كم هي ضـرورية هـذه النقطة الثانية: أي معرفة ايقاظ الانسان من جهله وكسله. اما الاولى: اظهار فقره، فإن العديدين يقيمون الشك حولها اكثر مما يجب. لا شك في انه يجب ان لا ننتزع من الانسان شيئاً مما عنده، أي ان ننسب له أقل مما عنده. ولكنه شـيء بديهي ان نرى كم هو ملائم تجريـده من المجد الكاذب الذي لا طائل تحته. لأنه اذا لم يكن مباحاً

له ان يمجد نفسه بنفسه عندما كان بسبب انعام الله، متمتعاً بالفضيلة ومزوداً بالانعامات الكلية، فكم يجب عليه الآن ان يتواضع بعدمـا انزل بسبب عقـوقه الى اقصى درجات الدنس، بعدما فقد الامتياز الذي كان له حتى ذلك الوقت؟ ولكي ندرك ذلك بسهولة اكثر، أقول ان الكتاب المقدس، في الوقت الذي كان فيه الانسان متمتعاً بأقصى درجات الشرف التي يمكن تصورها، لا ينسب اليه اكثر من القول انه مخلوق على صورة الله (تكوين ١ ـ ٢٧). مما يعني انه لم يكن غنياً بخيراته الخاصة، وإنما يعني ان ميزته مستمدة من الله. اذن ماذا بقي له الآن، بعد تجريده من كل مجد، إلا الاعتراف بإلهه، الذي لم يتمكن من معرفة طيبته وكرمه عندما كان يجود عليه بثروات عطفه. وبما انه لم يمجده بالاعتراف بالخيرات التي تلقـاها منـه، فليمجده ألآن بـالاعتراف بفقره.

وفوق ذلك ليس من المفيد لنا أن نتخلى عن كل مديح للحكمة والفضيلة، المطلوب للمحافظة على مجد الله. ما دام الذين ينسبـون لنا شيئـاً يتجاوز المقـدار الحقيقي بتجديفهم على الله، يدمروننا ايضاً. اذ لا شيء

ينتج غير ذلك ، عندما يعلموننا، ان نتوجه بقوتنا وفضيلتنا، وان نرتفع ونسمو الى حيث لا يساندنا احد للسمو، ولا يمنعنا شيء عن التعثر. وكذلك اعطاء قوانا اكثر مما تستحق من شرف، اذ ليس سوى دخان، كل ما تصوره البشر وما يثرثرون به.

(المؤسسة المسيحية ٢ ـ ٢ ـ ١)

٢٢ ـ اساس فلسفتنا الضعة

لهذا السبب اعجبتني دائمًا هذه الجملة من «كريزوستوم» (Chrysostome) حيث يذكر ان اساس فلسفتنا الضعة، واعجبتني اكثر عبارة القديس أوغستين اذ يقول «مثل ديموستينوس الخطيب اليوناني، عندما سئل من احدهم عن رائد الفصاحة، اجاب: اللفظ الجيد، وعندما سأله ثانٍ: اجاب الجواب نفسه، ورد بالجواب نفسه عندما سأله ثالث، هكذا عندما تسألني عن رواد الدين المسيحي، اجيبك ان الاول، والثاني، والثالث هم الاتضاع».

انه لا يعني بالاتضاع، ان لا يتكبر الانسان رغم انه يعتقد بأنه يملك بعض الفضائل، ولكنه يعني ان

يعرف نفسه في الحقيقة ان لا ملجأ له، إلا اذا تواضع أمام الله. ومثلما يعلن في مكان آخر: لا يتكبرن احد. كل انسان بحد ذاته شيطان، وكل الخير الذي عنده من الله. اذ ماذا عندك من نفسك. عدا الخطيئة، اذا أردت أن تأخذ ما هو لك، فخذ الخطيئة، لأن العدالة هي الله، وايضاً ماذا نتوقع من قوة طبيعتنا؟ انها تثير الألم، انها مسحوقة، انها مبددة، انها مدمرة، انها بحاجة الى اعتراف صحيح وليس الى دفاع مزيف، ايضاً: عندما يعرف كل واحد انه ليس شيئاً في نفسه، وان لا عون له في ذاته، تصبح الاسلحة معطلة فيه، اذ من الضروري ان تتحطم فيك كل أسلحة عدم التقوى، وتلوى، وتحرق، وان تبقى اعزل من السلاح، ليس لديك في نفسك أي عون. وكلما كنت ضعيفاً في نفسك، كلما احسن الله استقبالك، ولهذا يحظر علينا في مكان آخر ان نتذكر عدالتنا، كي نعرف عدالة الله، قائلاً ان رحمة الله ليست كاملة. إلا اذا استمدينا كل شيء منها، ما دمنا نحن بأنفسنا غير صالحين.

لا نناقش اذن ضد الله عن حقنا، كما لو اننا نفتقر الى ما ننسبه اليه. لأن في اتضاعنا رفعته، وايضاً ان

للاعتراف باتضاعنا دائمًا رحمته الجاهزة كدواء. في الحقيقة أنا لا ادعي ان الانسان يترك من حقه لله دون ان يكون مقتنعاً، وانه يحول فكره لكي يعترف بفضيلته، لو كان عنده منها، بهدف ان يلجأ الى الاتضاع، ولكني فقط ادعو الى ان يتأمل نفسه في مرآة الكتاب المقدس، متخلياً عن كل حب مجنون للذات، وعن الترفع، والطموح، والميول التي تعميه.

(المؤسسة المسيحية ٢ - ٢ - ١١)

٢٣ - نتائج السقوط

يعجبني جداً هذا الرأي الذي اخذناه عن القديس «اوغستين» والقائل ان المواهب الطبيعية قد أفسدتها في الانسان الخطيئة، وان المواهب فوق الطبيعية قد الغيت تماماً[١]. ففي القسم الثاني من العبارة، يجب ان نفهم وضوح الايمان بقدر ما نفهم الاستقامة والكمال

---

(١) هذا الرأي الشهير قد انتشر خلال القرون الوسطى، فالقديس «توما» ينسبه الى «بيد» المبجل (Bède le Vénérable)، سيد «الاحكام»، وبيار لومبارد ينسب الى القديس أوغستين (الاحكام ٢ - ٢٥) دون ان يؤكد ذلك بمرجع، واذا كان لا يوجد بنصه لدى القديس «اوغستين» فإن فكرته موجودة في العديد من مؤلفاته.

الخاصين بالحياة السماوية والسعادة الابدية، ولهذا السبب، فإن الانسان بتركه ملكوت الله، قد حرم من المواهب الروحية، التي كان متمتعاً ومتحصناً بها من اجل خلاصه، ومن هناك يتبع انه قد ابعد عن ملكوت الله، الى حد ان الاشياء جميعها المتعلقة بالحياة السعيدة للنفس، قد اطفئت فيه، حتى جاء الروح القدس فأعادها اليه برحمته، وهذه الأشياء هي: الايمان، محبة الله، الاحسان نحو القريب، الميل الى الحياة بقداسة و«عدالة» وطالما ان هذه الاشياء قد اعيدت لنا من قبل يسوع المسيح، فإنها لا يمكن لها أن تكون من طبيعتنا، لأنها متأتية من مصدر آخر، وبالتالي نستنتج انها الغيت منا.

وكذلك أيضاً، فإن كمال الادراك، واستقامة القلب، قد انتزعا منا. هو ذا فساد المواهب، الطبيعية. فرغم انه بقي لنا جزء من الذكاء، والتقدير مع الارادة لا نستطيع القول أن الادراك سليم وكامل، باعتباره ضعيفاً بهذا المقدار، ومحاطاً بكثير من الظلمات. اما بشأن الارادة، فإن الخبث والتمرد معروفان فيها. وبما ان الفعل وبه يميز الانسان بين الخير والشر، ويدرك ويقدر، موهبة طبيعية، فهو لم يلغ تماماً، ولكنه اضعف وافسد

جزئياً، الى درجة يبدو معها انه انقاض مشوهة.

وبهذا المعنى، قال القديس يوحنا ان الضوء ينير في الظلمة ولكن الظلمة لا تدركه (يوحنا ١ ـ ٥) وبهذه الكلمات عبر عن الاثنين بوضوح: ففي طبيعة الانسان مهما كانت منحرفة وفاسدة، تشتعل بعض اللهبات وبها يثبت انه حيوان عاقل. وهو يختلف عن الحيوانات المتوحشة، بقدر ما يتمتع به من ذكاء، غير ان ذلك الضوء مخنوق بظلمة الجهل، الشديدة جداً، الى درجة لا يستطيع معها في الواقع التسرب الى الخارج، وكذلك الارادة، فلأنها لا تفترق عن طبيعة الانسان، لم تتلف تماماً، لكنها مسترقة ومخنوقة تحت نير رغبات شريرة، الى درجة انها لا تستطيع ابداً اشتهاء شيء جيد.

(المؤسسة المسيحية ٢ ـ ٢ـ ١٢)

٢٤ ـ عقل الأشياء الأرضية والأشياء السماوية

ولكن عندما يجهد الادراك الانساني نفسه في بحث ما، فهو لا يكد بدون طائل، أو لكي لا يستفيد شيئاً، وبشكل رئيس عندما يتناول الاشياء الدنيا، رغم انه يهمل البحث عنها. ولكن البعض لا يتمتعون بالطاقة

نفسها التي يتمتع بها الآخرون لأن الانسان عندما يريد ان يسمو فوق الحياة الراهنة، يقتنع عندئذٍ بغباوته.

ولهذا السبب كي ندرك احسن الى اية درجة يمكن ان يسمو الانسان، يجب علينا أن نلجأ الى التمييز التالي: معرفة ان عقل الاشياء الأرضية يختلف عن عقل الاشياء السماوية.

ادعو اشياء ارضية تلك التي لا تمس أبداً الله ومملكته، ولا العدالة الحقيقية، ولا خلود الحياة المقبلة، انما هي متصلة مع الحياة الراهنة، ومحصورة تقريباً في حدود هذه الحياة.

اما الاشياء السماوية فأدعوها: معرفة الله الصافية، قاعدة العدالة الحقيقية، مملكة السماء وسببها في النوع الاول يوجد: النظرية السياسية، وطريقة حكم البيت حكمًا جيداً، والمهن الميكانيكية، والفلسفة وكل المناهج المسماة تحررية. وتضم الثانية: معرفة الله، وارادته، وطريقة ملاءمة حياتنا مع هذه المعرفة.

٢٥ ـ النظرية السياسية

بالنسبة للنوع الأول، يجب علينا الاعتراف بما

يلي: بما أن الانسان ذو طبيعة اجتماعية، فهو ميال من طبعه الى إقامة مجتمع والمحافظة عليه، وبالتالي نجد تأملات عامة صادقة ومدنية، مطبوعة في ادراك الناس جميعهم، ومن هنا يحدث انه لا يوجد أحد إلا يعترف، ان على جميع المجتمعات البشرية، ان تنتظم في ظل بعض القوانين، وإلا يملك مبدأ هذه القوانين في وعيه، ومن هنا نجد هذه الموافقة القائمة ابداً لدى الشعوب والافراد، لقبول القوانين، اذ يوجد بعض الجذور عند الجميع، مستمدة من الطبيعة، لا من سيد أو من مشترع.

ولا يلغي ذلك الخلافات، والصراعات التي تحدث باستمرار. والتي سببها أن البعض يريدون تجاوز القوانين كلها. وقلب كل نزاهة رأساً على عقب وإلغاء كل عدالة، لكي يحكموا انفسهم تبعاً لجشعهم، مثل الاشقياء واللصوص. والبعض الآخر، وهذا ما يحدث غالباً، يظنون جحوداً وظلماً ما يأمر به مشترع رغم كونه جيداً وعادلاً، ويرون جيداً ما يحظره باعتباره سيئاً. الأولون لا يحتقرون القوانين، لأنهم يجهلون اذا كانت سليمة وجيدة، وبل لأنهم مأخوذون بجشعهم، ويقاتلون بغضب ضد العقل، وما يشعرون به في ادراكهم يبغضونه

في قلوبهم. حيث يسيطر الشر . أما الآخرون، فإن لنفورهم أسباباً اخرى غير التي ذكرنا، تتعلق بمفهومهم لأن معارضتهم للقوانين تكمن في بحثهم عن ايها هي الاحسن: مما يدل على انهم قابلون نوعاً ما بالعدالة. التي بها ايضاً يظهر ضعف الادراك البشري الذي يظن انه يتبع الصراط المستقيم ولكنه في الواقع يترنح ويعرج.

غير ان ذلك يبقى دائمًا صامداً ما دام في البشر جميعاً بذرة ذات صفة سياسية، مما يشكل حجة كبيرة، على ان احداً ليس مجرداً من ضوء العقل، بالنسبة الى حكومة الحياة الراهنة.

٢٦ ـ المهن الميكانيكية والمهن الفكرية

أما المهن سواء الميكانيكية منها أو الفكرية، فتحتاج الى بعض المهارة لتعلمها. لذا تظهر ان لها في هذا الموضع فضيلة في الادراك الانساني. اذ ليس كل واحد مهيأ لتعلمها جميعها، مما يعتبر دليلاً كافياً على ان الادراك الانساني ليس مجرداً من الفضيلة في هذا المجال بشرط ان لا يكون احد، خالياً من الميل للاستفادة منها.

وفوق ذلك، نلاحظ الى جانب الفضيلة والسهولة في تعلمها، ان كل واحد في فنه يكتشف غالباً شيئاً

جديداً. او انه يضيف على ما تعلمه من الآخرين ويحسن فيه. وفي هذا كان افلاطون يغالي، عندما فكر ان هذا الفهم ان هو الا تذكر لما كانت النفس تعرف، قبل دخولها الى الجسد. غير ان العقل يحملنا على الاعتراف، بوجود مبدأ لهذه الاشياء، مطبوع في وعي الانسان.

هذه الأمثلة اذن تبين لنا وجود ادراك عام لدى العقل، منطبع طبيعياً في البشر جميعهم، وان ذلك عام الى درجة ان على كل واحد بنفسه أن يعترف في وعيه برحمة، خاصة من لدن الله، اعترافاً، يوقظنا كفاية، خلقه مجانين وأناساً بسطاء، يظهر منهم كما في مرآة، أي امتياز سيكون لنفس الانسان اذا لم تكتف بالاستضاءة من ضوئه الذي هو طبيعي للجميع، بنوع انه استفادة مجانية من رحمته الواسعة نحو كل واحد.

اختراع المهن، وطريقة تعليمها، ونظام منهجها، والمعرفة الفريدة والممتازة لهذه العلوم، باعتبارها اشياء متاحة لقليلين من الناس، ليست بالنسبة الينا براهين اكيدة على العبقرية الطبيعية للبشر. غير انه بإمكاننا، ما دامت مشتركة بين الصالحين وغير الصالحين، ان نصنفها بين المراحم الطبيعية.

٢٧ - المراحم الطبيعية

عندما نرى لدى الكتّاب الوثنيين هذا الضوء العجيب من الحقيقة الذي يظهر في كتبهم، فإن ذلك يؤكد لنا ان طبيعة الأنسان، رغم انها انزلت عن كمالها وافسدت كثيراً، لا تزال متمتعة بكثير من مواهب الله، فاذا اعترفنا، بروح الله كنبع وحيد للحقيقة فإننا ونحن، لا نصيب الحقيقة اينما كانت تكون كما لو اننا أردنا تحقير روح الله. لأن هبات «الروح» لا يمكن ان تحقر بدون تحقير هذه الروح والمساس بها.

ولكن، هل نستطيع الآن الانكار ان الفقهاء القدماء لم يكونوا على وضوح كبير من الحكمة، بوضعهم نظاماً جيداً وسياسة عادلة؟ هل تقول ان الفلاسفة كانوا عمياناً، سواء في اعتبارهم أسرار الطبيعة اعتباراً صحيحاً أو في كتابتهم تلك الاسرار بهذا القدر من الزخرفة، هل تقول انه لم يكن لدى الذين علمونا فن الجدال، الذي هو طريق الكلام بعقل، أي ادراك؟ هل نقول ان الذين اكتشفوا الطب كانوا اغبياء؟ والمناهج الاخرى هل نعتبرها اعمالاً جنونية؟ اننا على العكس، لا نستطيع قراءة الكتب التي الفت من المواد جميعها دون ان نشعر

بالاعجاب، اننا نعجب بها، لأننا سنكون مضطرين الى ان نعترف بالحكمة التي فيها. أيجب الا نقدر شيئاً، جيداً وممتازاً إلا اذا عرفنا انه متأتٍ من الله؟ اذ بدون ذلك سيكون منا عقوق كبير، لم يكن للشعراء الوثنيين، الذين اعترفوا بالفلسفة، والقوانين، والطب، والنظريات الاخرى كهبات من الله.

اذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الاشخاص الذين لم يكن لهم عون إلا الطبيعة، اذ كانوا عباقرة في ادراك الاشياء الدنيوية ، السفلى، فإن على مثل هذه الأمثلة ان تعلمنا كم ان الرب قد منح رحمته للطبيعة الانسانية بعدما تجردت من الخير المطلق. . .

كل شيء يعود، الى ان نرى في الجنس البشري كله ان العقل خاص بطبيعتنا كي يميزنا عن الحيوانات المتوحشة، كما تختلف هذه الاخيرة بالدرجة عن الاشياء الجامدة. اذ بالنسبة لولادة البعض مجانين، والآخرين حمقى، فإن هذا النقص يجب ان لا يغلف بالظلام الرحمة العامة لله، اننا على الأرجح ننبه بمثل تلك المشاهد الى اننا خارج ذلك امام رحابة صدر واسعة من الله، لأنه اذا كان جنبنا مثل ذلك النقص، فإن عصيان آدم قد

الغى كل ما اعطي لنا[1].

(المؤسسة المسيحية ٢،٢، ١٣ ـ ١٧)

٢٨ ـ الارادة المستعبدة

لا تستطيع الارادة باعتبارها مقيدة ومستعبدة من قبل الخطيئة، ان تتحرك نحو الخير، لفرط ما هي مضطرة ان تلتزم بها، لأن مثل هذا التحرك يشكل بدء توبتنا الى الله، المرتبطة تماماً برحمة الروح القدس عن طريق الكتب، مثل ارميا الذي يرجو السيد ان يشمله بالتوبة اذا شاء ان يتوّبه (ارميا ـ ٣١ ـ ١٨).

ولهذا السبب، فإن النبي في الفصل نفسه، يقول وهو يصف خلاص المؤمنين الروحي على يد يسوع المسيح، انهم اشتروا من قبل يد من هو أقوى، ملاحظاً بهذا كم ان الخاطىء كان مكبلاً برباط وثيق خلال الوقت الذي ابتعد فيه عن الله، وكان فيه مع الشيطان، ومستمراً تحت نيره.

غير ان الارادة تبقى في الانسان وهي بعاطفتها

---

(١) هذه الهبات الطبيعية التي بقيت لنا تؤلف اذن الرحمة العامة لله، التي تسمح للانسانية بالبقاء. اللاهوتيون. الهولنديون الكالفينيون اعاروها اهمية كبيرة.

الخاصة ميالة الى الخطيئة ، حتى انها مستعجلة للوقوع فيها. اذ عندما سقط الانسان في تلك الحتمية، لم يجرد من ارادته، بل من ارادته السليمة.

ولهذا فإن القديس برنارد لا يتكلم سيئاً ، عندما يقول ان الارادة موجودة لدى البشر كلهم انما ارادة الخير هي الاستثناء، الارادة هي من الانسان، اما ارادة الشر فهي من الطبيعة الفاسدة، وارادة الخير من نعمة الله. اذن، عندما أقول ان الارادة مجردة من الحرية ، وهي منجذبة بالضرورة الى الشر، يكون من العجيب ان يرى احد من الناس هذا القول غريباً، اذ لا حماقة فيه وقد أيده قدماء اعلام الدين.

(المؤسسة المسيحية ٢، ٣، ٥)

٢٩ ـ الحتمية والاجبار

يغتاظ البعض من أنهم لا يستطيعون التمييز بين الضرورة والاجبار، ولكن اذا سألهم احد لمعرفة ما اذا كان الله بالضرورة جيداً، والشيطان بالضرورة شريراً، فبماذا يجيبون؟ من الاكيد ان طيبة الله مرتبطة جداً مع ألوهيته الى درجة انه لا يمكن ان يكون بالضرورة طيباً

أقل مما هو إله. والشيطان في سقوطه، قد تخلى عن ارتباطه بالخير الى درجة انه لا يستطيع ان يأتي سوى الشر.

فاذا تمتم احد المجدفين بأن الله لا يستحق حمداً كبيراً على طيبته ، نظراً لأنه مضطر الى المحافظة عليها، ألا يكون الرد عليه سهلاً؟ ان ذلك متأتٍ من طيبته اللامتناهية، بحيث انه لا يستطيع أن يعمل شراً، لا بسبب الاجبار العنيف. واذا كان ذلك لا يمنع ارادة الله من ان تكون حرة عندما يصنع الخير، بحيث يصبح من الحتمي صنع الخير، واذا كان الشيطان لا يتخلى عن الخطيئة بارادته رغم انه لا يستطيع ان يفعل سوى الشر فمن يقول ان الخطيئة ليست ارادية عند الانسان لأنه عرضة لحتمية الخطيئة؟.

وكما ان القديس اوغستين علم في كل مكان هذه الحتمية، فهو لم يتورع عن تأكيدها حتى عندما هاجم ، «سيليستيوس» (Celestius) هذه النظرية، كي يجعلها، بغيضة ، وقد استعمل هذه العبارات: انه تأتى بارادة الانسان ان يسقط في الخطيئة، اما الآن فإن الفساد الذي تلاها قد ابدل الحرية الى حتمية، وفي كل مرة تناول هذا

الموضوع، اعلن بلا صعوبة، انه يوجد فينا عبودية محتمة لارتكاب الخطيئة.

يجب علينا اذن ان نلاحظ هذا الفرق، وهو ان الانسان بعدما أصابه الفساد، يرتكب الخطيئة بارادته، لا رغمًا عن قلبه، ولا بالاجبار، انه يرتكب الخطيئة بناء على ميل شديد اليها، لا بناء على اكراهه بالعنف، انه يرتكب الخطيئة بحركة من جشعه الخاص، لا بناء على اكراه من الخارج. ومع ذلك فإن طبيعته ضالة الى درجة لا يتأثر، فهو مدفوع ومجرور لا الى شيء آخر سوى الشر. اذا كان ذلك صحيحاً، فمن الراهن انه عرضة لحتمية ارتكاب الخطيئة.

القديس «برنارد» المؤيد لنظرية القديس «اوغستين» يتحدث هكذا: الانسان وحده من بين الحيوانات حر، ومع ذلك فإن الخطيئة حدثت، وهو يتحمل في سبيلها بعض الجهد الذي يعذبه، ولكن بإرادته لا بطبيعته[١]. بمعنى انه غير محروم من الحرية التي يتمتع بها منذ ولادته. لأن ما هو إرادي، حر ايضاً، ويضيف بعد

---

(١) يتعذب فيه بنوع من العنف المتأتي من الارادة لا من الطبيعة (ترجمة دافي: آثار القديس برنارد، مجلد ٢ ، ص : ١٤٠)

قليل: كون الارادة قد تغيرت الى الشر بفعل الخطيئة، فلست أدري اية طريقة غريبة وفاسدة تفرض حتمية لا يمكن لها ان تسامح الارادة رغم كونها ارادية. والارادة، رغم كونها عرضة للاغراء، لا تستطيع استبعاد الحتمية، لأن هذه الحتمية تبدو وكأنها ارادية. وبعد ذلك، يقول اننا خاضعون لنير، ليس سوى عبودية ارادية، وبالتالي نحن في نظر العبودية، بؤساء وفي نظر الارادة غير معذورين، لأنها عرضة لعبودية الخطيئة نظراً لكونها حرة. ويستنتج اخيراً: ان النفس اذن في ظل تلك الحتمية الارادية، ذات الحرية الفاسدة، تبقى مستعبدة، وتبقى حرة بطريقة غريبة وسيئة جداً: مستعبدة للحتمية، وحرة بالنسبة للارادة، ومما هو أكثر روعة واكثر بؤساً، انها مذنبة لأنها حرة وهي مستعبدة نتيجة لذنبها، وهكذا هي مستعبدة بقدر ما هي حرة.

ترون اني في مثل هذه الشهادات لا أضع شيئاً جديداً، بل أروي ما سبق للقديس «اوغستين» ان نركه لنا كتابة، بالموافقة المشتركة لجميع الآباء المقدسين. واستمر ألف سنة في أديار الرهبان.

اذن سيد «الاحكام» كونه لم يعرف ان يميز بين

الاجبار والحتمية، فتح السبيل لهذا الخطأ الذي كان قاتلاً كالطاعون للكنيسة، وهو جعل الانسان يعتقد انه قادر على تجنب الخطيئة، لأنه يرتكبها بارادته. (بحرية).

وبالتالي، فإن كل ما هو خير، في قلب الانسان، من عملِ النعمة الصافية.

(المؤسسة المسيحية ٢ ـ ٣، ٥ ـ ٦)

رابعاً - المقــــدر

٣٠ - الانتقاء الازلي

الارتبـاط بالحيـاة ليس ممنوحـاً لجميع النـاس، وحيث هو ممنوح لا يتلقاه الجميع بالسواء، وفي هـذا التنوع يبدو سر رائع من اسرار تقدير الله، اذ ما من شك في ان هذا التنوع لا يستجيب لرغبته السامية، واذا كان بديهياً ان ذلك يتم بارادة الله، وان الخلاص يمنح للبعض، ويحرم منه الآخرون فمن هنا تخرج مسائل كبيرة لا يمكن ان تجد لها حلاً بغير تعليم المؤمنين ما يجب ان يتمسكوا به من الاختيار والمقدر اللذين لله.

هذه الطريقة تبدو معقدة جداً لكثيرين، لأنهم لا يجـدون اي سبب لكي يعــد الله سـلفــاً، البـعض

للخلاص، والآخرين للموت. ولكن سيظهر فيها بعد انهم انفسهم يقعون في عدم التعقل والادراك اذ سنرى رغم التعقيد الذي يخيفهم، كم ان هذه النظرية مفيدة، وكم ان الثمرة الناتجة عنها لذيذة الطعم وحلوة.

لن نكون أبداً مقتنعين بوضوح، كما يجب، ان مصدر خلاصنا هو الرحمة المجانية لله، الى ان يتوضح لنا تماماً انتقاؤه الأزلي هو ايضاً، لأنه ينير لنا بالمقابل رحمة الله، في انه لا يهيىء بدون تمييز الجميع، الى رجاء الخلاص، بل يعطي البعض ما يحرم الآخرين منه. كل واحد يعترف كم ان جهل هذا المبدأ يضعف عظمة الله، وكم يبعد عن الاتضاع الحقيقي ان لا نعتبر الله وحده، مصدر خلاصنا...

اذا كنا مضطرين للعودة الى انتقاء الله، لكي نعرف اننا لن ننال الخلاص، إلا عن طريق التقدير الحر لله، فإن الذين يحاولون الغاء هذه النظرية يغلفون بالظلام ، كأناس عقوقين، ما عندهم منها مما يجب اشهاره وتمجيده بالفم الملآن، وينزعون جذور الاتضاع، يشهد القديس بولس بوضوح، انه عندما ينسب خلاص الشعب الى الانتقاء المجاني لله، يبدو انه يخلص بارادته من يحلو له ان يخلصهم. وان ذلك لا يتم طمعاً في أجر

لا يمكن ان يكون متوجباً.

والـذين يغلقـون البـاب، كي لا يحـاول احــد الاقتراب، لتذوق هذه النظرية، يوجهون الاحتقار للناس بقدر ما يفعلون لله. اذ لا شيء كافٍ، خارج هـذه النقطة لجعلنا متواضعين، ولن نشعر بدونها ابداً شعوراً كافياً كم نحن مدينون لله، وبالتالي، فإن المسيح شاهد على ان ليس لدينا أي حزم ثابت ولا ثقة، خارجها، فهو كي يطمئننا ويخلصنا من الخوف، وسط هذا القدر من المخاطر، والحبائل، والهجمات المميتة، وبـاختصار كي يجعلنا في مأمن لا نقهر، يعد بأن كل ما اعطي له من قبل الأب ليحافظ عليه، لن يهلك ابداً (يوحنا ١٠ ـ ٢٨).

ان الذين لا يعرفـون انفسهم، انهم من ضمن الشعب الخاص بالله، بائسون جداً، بقدر ما هم في ارتباك دائم...

يـوجـد ايضـاً ان الكنيسـة تـأتي من هنـاك الى مساعدتنا، وهي كما يقول القديس برنارد لا تعرف ولا توجد بين المخلوقات بقدر ما هي مخبأة بشكل رائع في حضن المقدر السعيد وتحت كومة لعنة البشر البائسة.

(المؤسسة المسيحية ٣ ـ ٢١ ـ ١)

٣١ ـ ضد الفضول في هذا المجال

ان هذه المناقشة حول المقدر، هي بحد ذاتها غامضة قليلاً، وهي بسبب الفضول لدى الناس قد اصبحت مغطاة ، مرتبكة وحتى محفوفة بالمخاطر، لأن الادراك البشري لا يمكن ان يتوقف، ويتقلص. ولا يتيه في دورات كبيرة، ويسمو عالياً الى فوق، مؤملاً اذا كان ممكناً أن لا يترك سراً لله، لا يقتحمه ويتفحصه، وبما اننا نرى ان كثيرين يسقطون في هذا التهور والصلف، وحتى ان كثيرين ليسوا اشراراً فيجب علينا التذكير كيف انهم يحكمون على انفسهم في هذا المجال.

اولاً، لنذكر انهم عندما يتفحصون المقدر، إنما يدخلون الى قدس الحكمة الالهية، التي مهما اظهر المتسرب من ثقة كبيرة واقدام، لن يبلغ ابداً ما يستطيع ان يشبع به فضوله، انما يدخل الى سرداب تيه (لابيرنت) حيث لا يجد منفذاً. لأن ذلك ليس سبباً في ان الأشياء التي أراد الله اخفاءها ، والتي احتفظ لنفسه بمعرفتها، تتفتح هكذا من قبل البشر، وفي ان رفعة حكمته التي أرادها ان تكون معبودة منا اكثر مما هي مفهومة، كي يكون هو نفسه مثيراً للاعجاب فيها، تكون

خاضعة للحس البشـري، يبحث عنها حتى خلودهـا.
اسرار ارادة الله التي وجد من الحسن ان ينقلها الينا،
اكدها لنا في كلامه، لكنه وجد من الحسن ان ينقل الينا
كل ما وجد انه يخصنا وانه مفيد لنا. . .

اذا حل هذا التفكير فينا مرة، وهو ان كلام الله هو السبيل الوحيد الذي يقودنا الى البحث عن كل ما يسمح بمعرفته عنه، واذا كان الضوء الوحيد الذي ينيرنا لتأمل كل ما يسمح لنا برؤيته فإنه (أي التفكير) بإمكانه بسهولة ان يحافظ علينا ويخلصنـا من كل تهـور، لأننا نعرف، اننا بخروجنا من حدود الكتاب المقدس، نسير خارج الطريق وفي الظلمات، ولا نستطيع شيئاً سوى التيه، والتعثر، والزلل لدى كل خطوة.

لنجعل نصب اعيننا دائماً فوق كل شيء ما يلي: ان رغبتنا في معرفة المقدر معرفة غير تلك التي اعطيت لنا في كلمة الله، لا تقل حجماً عن رغبة من يريد اجتياز الصخور التي لا يمكن اجتيازها أو الرؤية في الظلام، ولا نخجل من اننا نجهل بعض الشيء في هذه المادة، حيث الجهل اكثر حصولاً من المعرفة.

(المؤسسة المسيحية ، ٣ ـ ٢١ ، ١ ، ٢)

٣٢ ـ ضد الذين يسكتون هذه النظرية

رغم ان هذا التواضع في الاقتراب من أسرار الله باعتدال شديد، مشكور، فإن النزول كثيراً الى اسفل لا يفيد افكار البشر الذين لا ينقادون بسهولة، فلكي نحافظ على مقياس جيد علينا اذن العودة الى كلام الله، حيث نتأكد من وجود قاعدة عقلية جيدة، لأن الكتاب المقدس هو مدرسة الروح القدس، لم يخل منه أي شيء صالح، ومفيد تتوجب معرفته، وهكذا لا يوجد موضوع تعليم، ليس مناسباً للمعرفة، فعلينا اذن ان نتجنب منع المؤمنين عن ان يلموا بما يحتويه الكتاب المقدس عن المقدر. حتى لا يبدو اننا نرغب في تزييف الخير الذي وهبهم الله، او اننا نريد اتهام الروح القدس، كما لو انه نشر اشياء كان من الخير الغاؤها.

لنسمح اذن للانسان المسيحي، ان يفتح اذنيه ووعيه الى كل نظرية موجهة اليه من الله، بشرط ان يحافظ دائماً على هذه العادة، بحيث اذا رأى الفم المقدس لله مغلقاً، يمتنع عن محاولة الاطلاع وسيكون هنالك حدود جيدة للرزانة اذا اتبعنا الله، ونحن نتعلم، ما دام امامنا، وبالعكس عندما يتوقف عن تعليمنا علينا أن

نمتنع عن محاولتنا الاطلاع اكثر من ذلك، الخطر الذي يخشاه هؤلاء الناس الطيبون الذين تكلمنا عنهم، ليس من الاهمية بحيث يجب علينا ان نمتنع عن الاصغاء لله في كل ما يقول. وهذا الرأي من سليمان الحكيم صحيح جداً وهو القائل ان مجد الله اخفاء الكلمة (امثال ٢٥ ـ ٢). ولكن بما ان التقوى والشعور العام يبينان ان هذا المجد يجب ان لا يدرك الأشياء جميعها، علينا أن نبحث عن بعض التمييز، خوفاًمن أننابحجة الاتضاع والاتزان، نشعر بلذة الجهل العنيف ونستكين اليه. فموسى، يبين لنا كل شيء بكلمات قليلة عندما يقول: للرب الهنا اسراره في سره، لكنه اعلن قانونه، لنا ولأولادنا (تثنية ٢٩ ، ٢٩).

برى كيف يحرض الشعب على تطبيق درسه، على النظرية المحتواة في الشريعة، لأن الله قد رغب مسروراً في نشرها، غير انه يحتفظ بالشعب نفسه ضمن حواجز التعليمات التي اعطيت، وحدودها، للسبب الوحيد انه لا يسمح للبشر الزائلين بالولوج الى سرائر الله.

(المؤسسة المسيحية ٣ ـ ٢١ ـ ٣)

٣٣ ـ العلم المسبق والمقدر

من يرغب ان يعتبر نفسه إنساناً خائفاً الله، لا يتجرأ بسهولة على انكار المقدر، الذي به اعد الله البعض للخلاص، وفرض على الآخرين اللعنة الابدية.

ولكن كثيرين يغلفونه بمختلف الافكار الدقيقة، وخاصة الذين يريدون تأسيسه على العلم المسبق. نحن نقول ان الله يتوقع مسبقاً الاشياء جميعها كما يرتبها، وإنما نخلط كل شيء اذا قلنا ان الله يختار أو يهمل حسب ما يتوقع هذا أو ذاك، وعندما ننسب الى الله علماً مسبقاً، إنما نعني بذلك ان الاشياء جميعها كانت دائماً وتستمر أبداً تحت انظاره، بحيث لا يكون هناك مستقبل أو حاضر في معرفته بل أن الأشياء جميعها حاضرة له، وحاضرة بشكل أنه لا يتخيلها كبعض الأنواع (ظواهر)، مثل الأشياء التي نحتفظ بها في ذاكرتنا. وتبرز امام اعيننا بالتصور، ولكنه يراها وينظر اليها بحقيقتها الكاملة كما لو كانت أمام وجهه. نقول ان هذا العلم المسبق يمتد الى جميع دائرة الكون، والى المخلوقات جميعها. نحن نسمي المقدر، الرأي الأزلي لله. الذي به قد حدد ما يريد ان يصنع بكل انسان. اذ انه لا يخلق البشر جميعهم في ظروف مشابهة، بل يعدّ البعض للحياة الابدية، والآخرين للعنة

الابدية. وهكذا حسب النهاية التي خلق من اجلها الانسان، نقول انه مقدر له الموت أو الحياة.

نقول اذن ان الله عندما أصدر رأيه الأزلي والثابت، عين الذين يعدهم للخلاص، والذين يأخذهم الى الضياع، ونقول ان هذا الرأي، بالنسبة الى المختارين، يستند الى رحمته الكلية، دون أي اعتبار للقيمة البشرية، وبالعكس فإن الدخول الى الحياة ممنوع على جميع الذين يريد تسليمهم للعنة، ويتم ذلك عن طريق تقديره الخفي وغير المفهوم، رغم انه عادل ومنصف.

وفوق ذلك ، نعلم ان الدعوة الربانية للمختارين شبيهة بالدليل على اختيارهم وشهادة على هذا الاختيار، وكذلك تثبيتهم دليل آخر عليه وعلامة، الى أن يأتوا الى المجد الذي به يكمن اتمام ذلك الانتقاء، وبما أن الله يسم الذين اختارهم، بدعوتهم وتثبيتهم، فهو على العكس بحرمانه المغضوب عليهم من معرفة كلامه وتقديس روحه، انما يبين بهذه العلامة ما هي نهايتهم والحكم الذي اعده لهم.

(المؤسسة المسيحية ٣ ـ ٢١ ـ ٥ و ٧)

ولأننا لا نعرف الذين ينتمون ام لا الى عداد

المقدرين، علينا أن نميل الى تمني الخلاص للجميع، واذا كان الأمر كذلك، علينا أن نحاول جعل جميع الذين نلتقي بهم يشتركون في سلامنا.

(المؤسسة المسيحية ٣ - ٢٣ - ١٤)

٣٤ - أساس الاختيار في المسيح

اذا كنا نرجو ان ننال رحمة الله الابوية، وعطفه نحونا، علينا ان ندير انظارنا نحو المسيح، فبه وحده مسرّة الاب (متى ٣ - ١٧). واذا كنا نبحث عن الخلاص، والحياة، والخلود، فيجب علينا ان لا نلجأ الى مكان آخر، لانه وحده نبع الحياة، وحامل الخلاص. ووارث مملكة السماء. اذ الى اي شيء يهدف الانتقاء اذا لم يكن انالتنا وقد تبنانا الله كاولاده، الخلاص والخلود في رحمته ومحبته؟ مهما راجعنا ، وقلبنا ونقبنا لوجدنا ان الهدف من انتقائه لا يتناول شيئا آخر اكثر من ذلك. وبالتالي فان الذين اختارهم الله كاولاد له، لم يقل انه اختارهم من اجل انفسهم، ولكن بالمسيح (اعمال ١ - ٤)، لانه لا يستطيع ان يحببهم الا به، ولا يستطيعون ان يمجدوه في ارثه، الا اذا جعلهم اولا يشاركون فيه.

اذن اذا كان جرى اختيارنا بالمسيح، فاننا لن نجد فينا الثقة في اختيارنا، ولا حتى في الله الآب اذا تصورناه

بدون ابنه. المسيح اذن مثل مرآة من الملائم ان نتأمل فيها اختيارنا، وفيها نتأمل هذا الأختيار بدون خداع. وبما ان الاله السماوي قد اقترحه لتجسيد الذين ارادهم منذ الازل خاصة، كي يكشف لاولاده جميع الذين يعترف بهم كذلك، نجد لنا شهادة قوية جدا ومفحمة على اننا مسجلون في كتاب الحياة، اذا ما شاركنا المسيح.

(المؤسسة المسيحية ٣ ـ ٢٤ ـ ٥)

٣٥ ـ انه سـر

القديس اوغستين يتكلم على هذا الشكل: لماذا اعطي للواحد دون الأخر؟ لا اخجل من القول ان هذا سر عميق للصليب، سر من احكام الله التي لا اعرفها اطلاقا، والتي لا يسمح لنا بالحصول عليها، ولكن من حيث ينبثق كل ما نستطيع: ارى جيدا ما اقدر عليه، اما من اين اقدر عليه. فلا ارى ابدا. ما عدا اني ارى ان ذلك من الله. ولكن لماذا يدعو الواحد وليس الأخر؟ ان ذلك سام جدا بالنسبة لي، انه هوة عميقة. انه عمق من اعماق الصليب. استطيع ان اصرخ اعجابا، الا اني لا استطيع الاثبات بالمناقشة.

(المؤسسة المسيحية: ٣ ـ ٢ ـ ٣٥)

لمحة تاريخية مختصــرة

تاريخ حياة كالفين

- «تيودور دي بيز وجرمان كولادون» حياة كالفين: أوبرا كالفين، المجلد ٢١.
- اميل دومرغ: جان كالفين: الرجال والأشياء في عصره ٧ مجلدات، لوزان وباريس ١٨٩٩ ـ ١٩٢٧.
- الايقنة الكالفينية ـ لوزان ١٩٠٩ (وهي دراسة كل ما يتعلق بشخص أو عصر من الايقونات والصور ـ المعرب)
- و . والكر (ترجمة أ. ون. وايس) جان كالفين: حياته واعماله جنيف ١٩٠٩.
- ج ـ دبنوا: جان كالفين: الرجل حياته، فكره ، باريس ١٩٣٤.

- ا. م . شميدت: جان كالفين والتراث الكالفيني، باريس ١٩٥٧.
- ج. كادييه: كالفين الرجل الذي وهبه الله، باريس ١٩٥٨.
- ج ريلييه: كالفين، باريس ١٩٦٣.
- ج، بواسيه: كالفين وسلطة الله، باريس ١٩٦٤.
- ف. ويندل، كالفين: منابع الفكر الديني وتطوره، باريس ١٩٥٠.
- ب. ايمبارت دي لاتور: كالفين والمؤسسة الدينية المجلد الرابع - مصادر الاصلاح، باريس ١٩٣٥.
- ب، جوردا (Jourda)، كالفين في المجلد ١٦ من تاريخ الكنيسة (فليش ومارتين) - باريس ١٩٥٠.

ابحاث متفرقة عن كالفين وفكره

- ابيل لوفران : شباب كالفين ، باريس ١٨٨٨
- ا. غانوشي: الشاب كالفين، فيسبادن ١٩٦٦.
- ج. بانيه: ابحاث حول التنشئة الفكرية لكالفين. (ستراسبورغ ١٩٣١)، ابحاث عن التطور الديني حتى التوبة (ستراسبورغ ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥).
- ج . دي سوسور: في مدرسة كالفين : باريس ١٩٣١.
- أ. لوسيرف: ابحاث كالفينية، نيوشاتيل ١٩٤٩.
- ج. كاديبه: النظرية الكالفينية عن السانت ـ سين: مونبليه ١٩٥١.

- ل. سميتس: القديس أوغستين في اعمال كالفين: مجلدان آسين ١٩٥٧.
- م. أ. شينيفيير (Chenevière): الفكر السياسي لكالفين، جنيف ١٩٣٧
- أ. بيليه: الفكر الاقتصادي والاجتماعي لكالفين: جنيف ١٩٥٩.
- أ. غانوشي: كالفين لاهوتي الكنيسة والكهنوت، باريس ١٩٦٤.
- ج. بواسيه: الحكمة والقداسة في فكر كالفين، باريس ١٩٦٠.
- ر. ستوفر: انسانية كالفين - نيوشاتيل ١٩٦٤.
- ب. غانيبين - الى لقاء كالفين، جنيف ١٩٦٤.
- الندوة الكالفينية، نظرات حديثة عن كالفين: باريس ١٩٦٤.

الفهرســت